الدكتور عمر بن قينة

فن المقامة في الأدب العربي الجزائري

دار المعرفة

الدكتور عمر بن قينة

فن المقامة في الأدب العربي الجزائري



دار المعرفة

العنوان : فن المقامة في الأدب العربي الجزائري

تأليف : د. عمر بن قينة

الإخراج : قسم التصفيف . دار المعرفة .

المطبعة : . دار المعرفة .

ر.د.م.ك : 9-390-48-9961-978

الإيداع القانوني : 2007 / 38

دار المعرفة

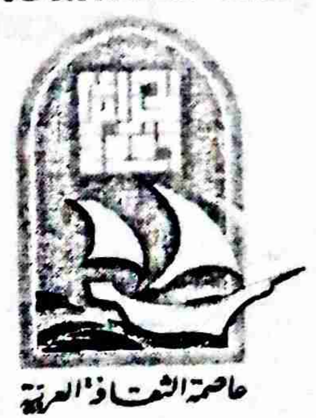
13 شارع أحمد حسينة باب الوادي الجزائر

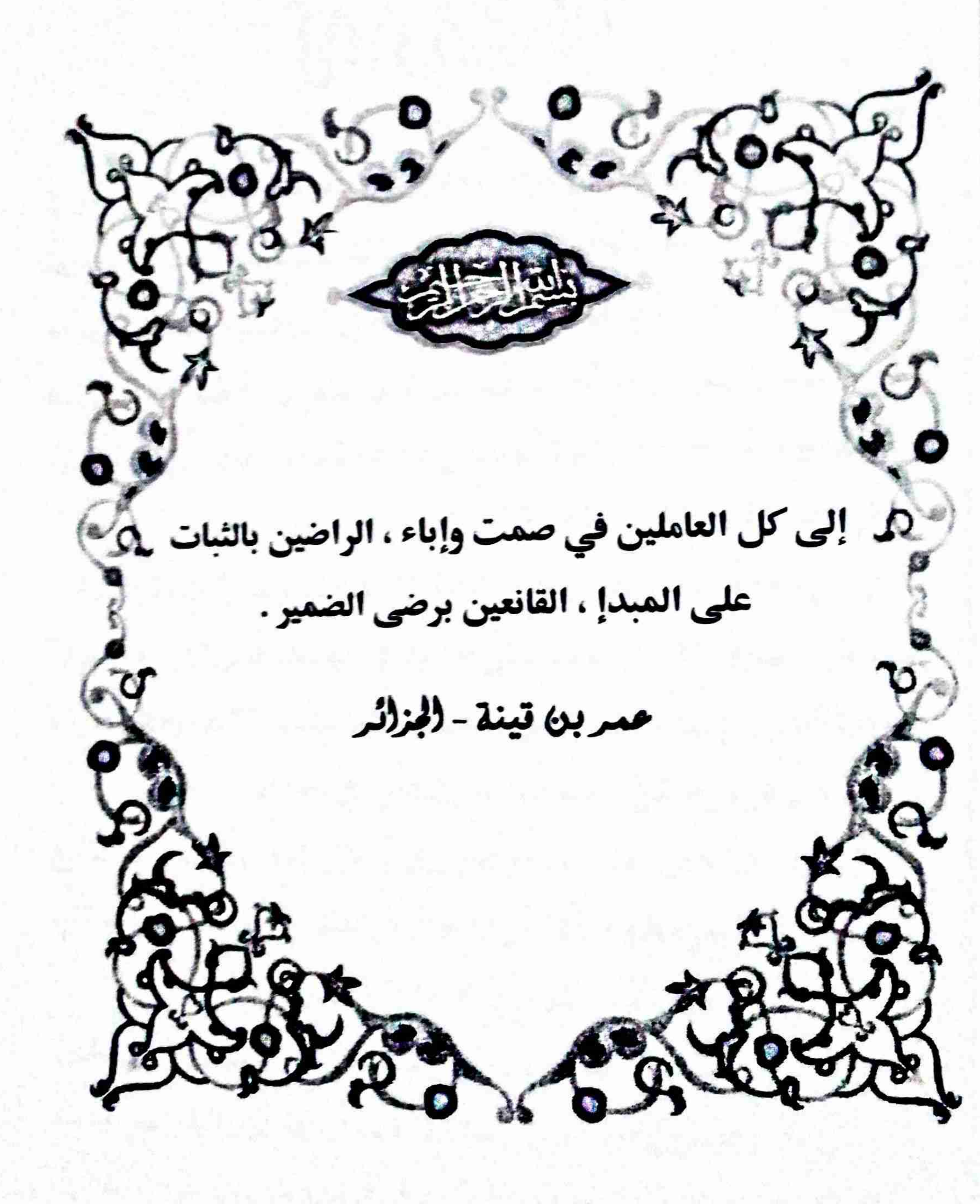
الهاتف: 021.96.76.65

فاكس : 021.96.86.97

http//www.elmarifa.com

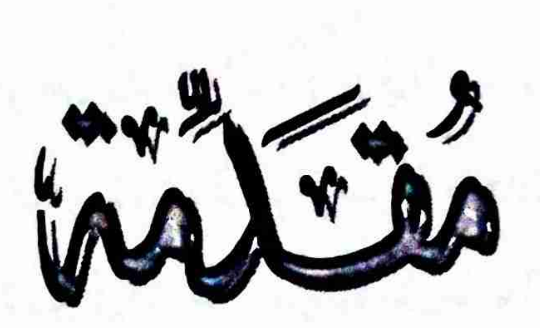
e mail : fhouma @ elmarifa.com





إلى كل العاملين في صمت وإباء ، الراضين بالثبات على المبدإ ، القانعين برضى الضمير .

عمر بن تينة - الجزائر



سألني الناشر الأخ «فيصل هومة» مدير دار المعرفة وأنا خارج الجزائر إن كان هناك ما أضيفه للطبعة الثانية من هذا الكتاب بمناسبة (الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007م) ففتح السؤال شهية في (البحث) أملا في الإثراء والإضافة، لكن سرعان ما أبطلها عاملان اثنان أساسيان : أولهما وجودي لمدة غير قصيرة خارج (الجزائر) أستاذا في (جامعة الملك عبد العزيز بجدة) والثاني قصر الفترة المتاحة أمام توق الإثراء.

لكنّني وجدت عزائي في تراجع الشهية التي فتحتها رغبة الإضافة والإثراء: أنّه على مستوى المادة لم أتوفّر على جديد في البحث حتّى الآن، كما لم أرَ ضَرورة قصوى لإضافة نماذج من (مقامات) فما تضمّنه الكتاب يعطي صورة تقريبية عن كلّ مرحلة في رحلة هذا الفنّ الأدبي، في الجزائر.

لذا اقتصرت هنا على تدارك ماهو ضروري في مثل هذه البحوث ذات الطابع الأكاديمي والتعليمي، هو (الفهارس) فضلا عن تدارك الأخطاء المطبعية التي حدثت في الطبعة الأولى، في انتظار رأي القارئ والباحث واقتراحاته.

وإن تطلّعنا في مقدمة الطبعة الأولى مع نهاية القرن العشرين إلى أن يكون القرن الواحد والعشرون خيرا على الإنسانية : فقد أرادته قوى البغي شرّاً بدأت تصطلي بجحيمه الإنسانية، بعد ما أعلنت قوى العدوان والجبروت العالمية حربها على الإنسان وإنسانيته، لتذلّه، وتهدّد أمنه، وتشيع الرعب في نفسه،

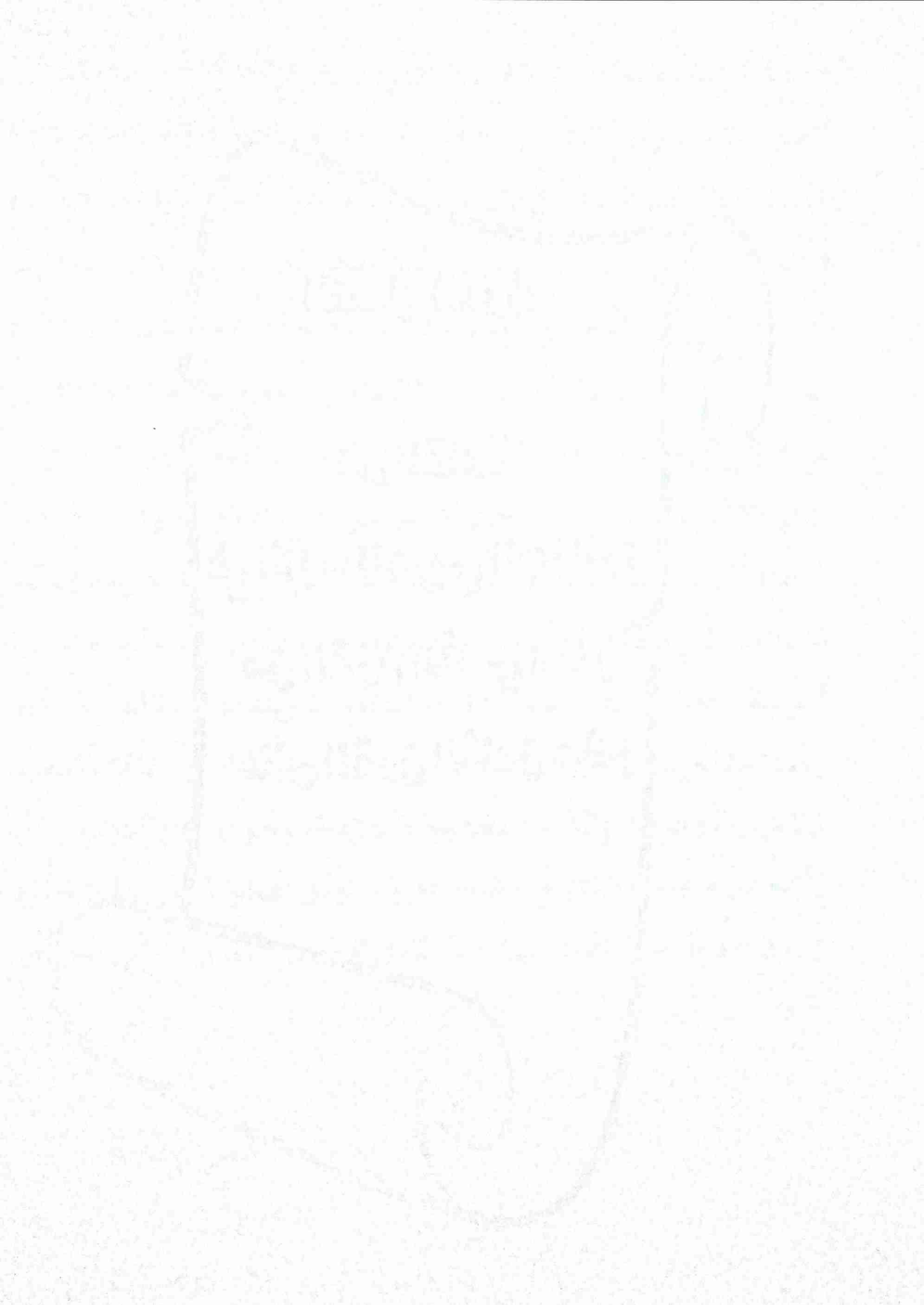
وتهدد كرامته، وتصادر حريته ورزقه وفي النهاية روحه، لحفر المزيد من قبور (حوار الحضارات) الذي تبنيه قيم الحرية والعدالة لا غطرسة الأنظمة المستكبرة والعنصرية للعلوّ في الأرض، بقيادة الإرهاب الأمريكي وكلب حراستها في الوطن العربي (إسرائيل) وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب يتقلبون، لوعد من الله و وعيده للمستكبرين، ولا يظلم ربّك أحدا، وهو الواحد القهّار، ومنه وحده يستمدّ المؤمنون (العاملون) الجادون (الصادقون الشرفاء) المخلصون العون : كي لا يمضي القرن الواحد والعشرون كما بدأ دماء تنزف، وقبورا تحفر بأيدي البغي الأمريكي والصهيوني، حتى تزهر من حنايا الآلام : ورود ورياحين في أرجاء المعمورة التي منها هذه الزاوية (الجزائر) في وطننا العربي، وعالمنا الإسلامي التي نطمح إلى أن يكون اختيارها سنة (2007م) عاصمة للثقافة العربية : بداية لإعادة (التأهيل) لدور الكلمة الشريفة الطاهرة الفاعلة، نحو إعادة لمكانة الثقافة، ودور المثقف النزيه ومسؤوليته، تجاوزا لثقافة المسرة والإنتهازية والدجل والمآرب الشخصية والحزبية، ونحوها، هو التجاوز الذي يأمله كلّ محبّ لوطنه وأمته غيور عليهما. وقل اعملوا فسيرى اللّه عملكم ورسوله، والمؤمنون الصادقون ! سنة الله في الآخرين، كما في الأولين. مع ألف تحيه !

عمر بن قينة

جدة : 17 رمضان 1427 هـ

(9 أكتوبر 2006م)


الفصل الأول
فن المقامة
في الأدب العربي الجزائري
من القرن الثاني عشر
حتى القرن الثامن عشر



عُرف أول نموذج من (المقامة) في الأدب الجزائري في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) فقطع أشواطا متباينة حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري (منتصف القرن العشرين) فتعددت نماذج المقامة، و اختلفت في حجمها، و أسلوبها، ولغتها . فضلا عن المضامين التي ترتبط بفترات و أوضاع مختلفة، و هو ما سنحرص هنا على تتبع أهم نماذجه في أكبر محطاته عبر ستة قرون .

إن نشأة (المقامة) كنوع أدبي عربي ارتبطت باسم واحد من أهم أعلامها الأولين، أو أهم أعلامها من أولئك، و هو (أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني) المولود سنة (358 هـ/968 م) المتوفي سنة (398هـ/1007 م) لقد اشتق اسم (المقامة) من كلمة (المقام) التي تعني (المجلس) مكانا وجماعة حيث ينهض متحدث يلقي على أسماع الجماعة كلاما، فهي إذن الحلقة التي يدور فيها حديث متميز ذو طابع استثنائي : للوعظ أو للإمتاع أو سوى ذلك، في أسلوب قصصي بليغ، يعتمد الزخرفة اللفظية، و الأناقة في

التعبير، و التصوير، و قد أطلق (بديع الزمان الهمذاني) المصطلح (مقامة) في وصف مقاماته التي استندت إلى شخصيتين أساسيتين همـــا بطل (المقامات) : (أبو الفتح الإسكندري) و الراوي (عيسى بــن هشـــام) فـــي كل المقامات الإحدى و الخمسين ، حيث يشيع الحـــوار فيها بين (أبي الفتح الإسكندري) و هو رجل علم و فكر و أدب، لكـــنه محـــتال، فـــي زمن غادر متقلب . و (عيسى بن هشـــام) الـــراوية: رحالة تاجر، و تقوم على الاستجداء و الخداع و الاحتـــيال طلـــبا للرزق في قالب من السخرية و النكتة متوسلة بالـــبراعة الأســـلوبية للتعلـــيم و الإمـــتاع في صيغ شتى للتمويه و التضـــليل فـــيظهر (أبو الفتح الإسكندري) في صورة « أديب شـــحاذ يجلـــب الجماهـــير ببيانه العذب و يحتال بهذا البيان على استخراج الدراهم من جيوبهم »[1] متعللا بالظروف الظالمة، التي تضطره كرجل فكر و عقل للبحث عن المسوّغات لفعله، فيخاطب

---

[1] د. شـوقي ضيف، المقامة، سلسلة (فنون الأدب العرب)، دار المعارف، مصر، 1976م، ط:4، ص:24.

صاحبه (عيسى بن هشام) في أول (مقامة) هي (المقامة القريضية) ببيتين للشاعر (أبي دلف) :

و يحك هذا الزمان زُور فلا يغرّنك الغرُور

لا تلتزم حالة ولكنْ دُر بالليالي كما تدور

لقد ولد (أبو الفضل أحمد بن الحسين) في (همذان) إحدى المدن الإيرانية (سنة 358هـ) لأسرة عربية، حيث درس على يد أبيه، ثم انتقل و عمره اثنتان و عشرون سنة إلى (الرّيّ) قاصدا (الصاحب ابن عباد) الوزير (البويهي) ثم انتقل إلى (نيسابور) ثم (هراة) حيث تزوج، و أنجب أولادا، و حاز أملاكا و مزارع، و فيها لقي ربه (سنة 398هـ) بعدما أرسى دعائم فن عربي أصيل، حمل اسم (المقامات) أنجزه في (إيران) حيث أطلق على (مقاماته) أسماء بلدان (فارسية) و (عربية) أو أسماء حيوانات، أو أكلات، مثل (المضيرية) أو موضوعات مثل (الإبليسية) و (الوعظية) و (القريضية) . و قد فتن بسجعه معاصريه و أثّر في تلاميذه « فالأصل عنده أن يسجع و لا يترك السجع إلا نادرا،

و كانت تسعفه في ذلك حافظة نادرة، و بديهة حاضرة، و ذكاء حاد، و إحساس دقيق باللغة مترادفاتها و أبنيتها و استعمالاتها المختلفة » كما يقول الدكتور (شوقي ضيف) الذي يضيف عنه « فما هي إلا أن يتوجه إلى الكلام حتى تنهال عليه الألفاظ من كل جهة، كأنها السيول تفد من كل صوب، و كان يعرف كيف يفيد من هذه السيول . . و من هنا كان سجعه في جملته خفيفا رشيقا، فليس فيه تكلف و ليس فيه صعوبة و لا جفاء، فهو دائما كأنما يستمد من فيض لغوي لا ينفد، و تراه إزاء المعنى وكأنه الصائد الماهر الذي يحسن إلقاء شباكه على صيده فلا يخطئه، بل يصيبه دائما، و يخيل إليك كأنه يجمع نفسه جمعا إزاء الكلمات اللغوية، فإذا هو قد أحصاها إحصاء، و إذا هو يجيء بما يوافقه و يريده منها و كأنه يمسك بزمامه» [2].

و لم يكد يشيع هذا النوع الأدبي حتى جلب إليه الأفئدة و الأنظار منذ هذه الفترة المبكرة (في القرن الرابع الهجري)

[2] المرجع نفسه، ص : 33.

فشرع يتبارى فيه بعض الكتاب، مثل (ابن نباتة السعدي) المتوفي سنة (405هــــ) ثم (أبو القاسم عبد الله بن ناقيا) المتوفي سنة (485هــــ) و كذا (أبــو الطاهر محمد بن يوسف السّرقُسْطي) المتوفي سنة (538هــ) لكون النوع جديدا جذابا مغريا بألفاظه و معانيه الأمر الذي جعل شارح مقامات الهمذاني الشيخ (محمد عبده) يقول فيه « من أشرف ما امتاز به كلامه أنه يباهي كلام أهل الوبر رصانة و رفعة، و يمتزج بطباع أهل الحضر رقة ورواء صنعة؛ فبينما يخيل لسامعه أنه بين الأخبية و الخيام إذ يتراءى له أنه بين الأبنية والآطام » [3].

أما الذي أبدع في ذلك بمستوى رفيع بعد (الهمذاني) فهو (أبو محمد القاسم الحريري) المولود سنة (446هــ/1054م) المتوفي سنة (516هــــ/1122م) بمقاماته (الخمسين) المشهورة باسمه (مقامات الحريري) . و هو من مواليد (البصرة) متضلع في

(3) الهمذاني، بديع الزمان، مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح: الشيخ محمد عبده، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1965م.

العلـــوم اللغويـــة و الدينـــية و النحوية، فذاعت شهرته في العالم الإســـلامي، و أقـــبل عليه الطلبة، حتى قيل: إنّه أجاز (سبع مئة طالـــب لـــرواية (مقاماتـــه) نفسها، و هي على ما هي عليه من مســـتوى لغـــوي عال جدا بالدرجة الأولى، و هي المقامات التي كتـــبها فيما يُظن ببغداد نزولا عند إلحاح الخليفة المستظهر (487 هـــ/512هـــ) الـــذي « كان له حظ من الأدب و عناية بأهل العلـــم »[4]. و قد عبر (الحريري) عن ذلك في مقدمة (مقاماته) معلنا بوضوح المناسبة و المحرض لإشاعة حيوية أدبية في محيط راكـــد، فقال بعد نحو ثلاث صفحات إنه « قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه، و خبت مصابيحه ذكر المقامـــات التـــي ابتدعها بديع الزمان و علامة همذان رحمه الله تعـــالى، وعزا إلى أبي الفتح الإسكندري نشأتها و إلى عيسى بن هشـــام روايـــتها، و كلاهما مجهول لا يُعرف و نكرة لا تعرف؛ فأشـــار من إشارته حكم و طاعتهُ غُنْم إلي أن أنشئ مقامات أتلو

---

[4] د. شوقي ضيف. مرجع سابق. ص:45.

فـيها تلو البديع، و إن لم يدرك الظالع شأو الضليع، فذاكرته بما قيل فيمن ألف بين كلمتين و نظم بيتا أو بيتين، و استقلت من هذا المقـام الـذي فيه يحار الفهم و يفرط الوهم، و يسبر غور العقل و تبيـن قيمة المرء في الفضل، و يضطر صاحبه إلى أن يكون كحاطـب ليل، أو جالب رَجْل و خيل، و قلما سلم مكثار، أو أقيل لـه عـثار، فلمـا لم يسعف بالإقالة و لا أعفى من المقالة، لبيت دعوتـه تلبـية المطـيع، و بذلت في مطاوعته جهد المستطيع، و أنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة و فطنة خامدة و روية ناضـبة و همـوم ناصـبة خمسين مقامة تحتوي على جدّ القول و هزلـه و رقـيق اللفظ و جزله، و غرر البيان و درره، و ملح الأدب و نـوادره، إلـى مـا و شحتها به من الآيات، و محاسن الكـنايات، و رصعته فيها من الأمثال العربية، و اللطائف الأدبية و الأحاجـي الـنحوية، و الفتاوى اللغوية، و الرسائل المبتكرة، و الخطب المحبرة، و المواعظ المبكية و الأضاحيك الملهية، مما أمليت جميعه على لسان أبي زيد السروجي، و أسندت روايته إلى

الحرث ابن همام البصري، و ما قصدت بالإحماض فيه إلا تنشيط قارئيه و تكثير سواد طالبيه، و لم أودعه من الأشعار الأجنبية إلا بيتيـــن فذين أسست عليهما بنية المقامة الحلوانية و آخرين توأمين ضـــمنتهما خواتـــم المقامة الكرجية، و ما عدا ذلك فخاطري، أبو عذره و مقتضب حلوه و مره، هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله سباق غايات، و صاحب آيات . . . »[5].

و مقامات (الحريري) نفسها تبقى مرتبطة بالكُدية و الاستجداء، و هــو ما يلتقي فيه مع (الهمذاني) بتفاوت، كما يرد ذلك التفاوت فـــي الاهـــتمام بـــالوعظ، و مســـتوى اللغـــة الصعب أكثر لدى (الحريري) .

إن ذكـــر (الحريـــري) نفســـه أن شخصـــيتي (المقامات) لدى (الهمذاني) خياليتان، فهو لم يقل شيئا مهما عن شخصيتي مقاماته

---

(5) الحريري أبو محمد القاسم، كتاب مقامات الحريري، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، من دون تاريخ، (الطبعة من الخمسينات) مجلدة، تضم الرسالتين (السينية) و (الشينية) للحريري، مع رسالة ابن الخشاب البغدادي، في الاعتراض على الحريري، و غيره، ص:7.

الخمسين: البطل (أبي زيد السروجي) و الراوية (الحرث) أو (الحارث بن همام) و إن عنى نفسه بشكل ما بشخصيته (الحارث بن همام) كما ورد في هامش (مقدمة) لمقاماته الخمسين :« أخذا من قوله عليه الصلاة والسلام: كلكم حارث و كلكم همام» فإن (أبا زيد السروجي) البطل يرى بعض الباحثين أيضا أنه حقيقي من دون أن يقوم دليل على ذلك، و يبقى الصواب أن (الحريري) ابتدع (شخصيتيه) من (خاطره) كما يقول مثلما ابتدعهما سلفه أيضا، فهو و إن عنى نفسه بالحارث، فإن ذلك لا يخل بأمر ابتداع الشخصية الفنية .

و في سياق تعبير الحريري ما يفيد هذا الرأي، من مقدمته ذاتها التي كتبها لمقاماته، و عرضنا أهم جزء منها؛ فيبقى أبو زيد السروجي إذن في النهاية لدى (الحريري) مثل أبي الفتح الإسكندري عند (الهمذاني) و الحارث بن همام كعيسى بن هشام، و قد ارتقى الفن بالواقع .

يبقى الجانب التعليمي، و الترفيهي، و عناصر السخرية و الإضحاك أمرا قائما مما حفلت به مقامات (الهمذاني) و (الحريري) مع وظيفة لغوية و اجتماعية، و فكرية، فضلا عن القصد الأدبي الذي باح به (الحريري) نفسه .

لقد نضج (فن المقامات) بقلم (الهمذاني) في القرن الرابع الهجري (القرنين العاشر و الحادي عشر الميلاديين) حتى بات نوعا يحتذى مع (الحريري) و هذا في المشرق العربي، فماذا عن المسار العام لهذا النوع الأدبي بعد (الهمذاني) و (الحريري) في المغرب العربي ؟

لقد اطرد الإبداع في هذا النوع الأدبي مشرقا و مغربا، لكننا نعتقد أن أحسن من تبوّأ مكانة فيه بعد (الحريري) هو الكاتب الجزائري المبدع (ابن محرز الوهراني) في القرن (الخامس الهجري/الثاني عشر الميلادي) الذي استطاع أن يعالج جوانب مختلفة على أيامه : سياسية و دينية و ثقافية و اجتماعية، و اقتصادية بلغة رفيعة جدا، و بأسلوب أخاذ حافل بالسخرية،

و روح الكُدية، التي تجاوزت مقاماته، إلى رسائله و مناماته، التي تتضمن أشكالا من صيغ (المقامة) التي سيبدأ الشكل فيها يتطور : أبطـالا، و مقاصـد، في الأدب الجزائري ابتداء من هذه الفترة، استغل فـيها (الوهرانـي) تجربـته المرة في (الجزائر) و في (الشـرق) كمـا عكسـت إمكاناته الفكرية و الأدبية التي نلمسها بوضـوح فـي عملـه الأدبـي الـذي يحمل عنوان :« منامات الوهرانـي و مقاماتـه و رسائله» [6]. في أكثر من (ثلاث مئة صـفحة) ضمّت نصوصـا قـال عـنها الدكتور (عبد العزيز الأهواني) : إنها « تمتاز في تاريخ النثر الفني في الأدب العربي بمـيزات تـرفعها إلى مقام عال، و لا نكاد نجد في النثر العربي القديـم فيها ما في كتابات الوهراني من حيوية و ذكاء و لمحات تعبر عن شخصية الكاتب و تصور في دقة و بلاغة بعض جوانب

---

[6] **الوهراني، ابن محرز، منامات الوهراني و مقاماته و رسائله، تحقيق إبراهيم شعلان و محمد نغش، مراجعة و تقديم الدكتور: عبد العزيز الأهواني، دار الكاتب العربي للطباعة و النشر، مصر، 1968م.**

الحـــياة الفكرية و الاجتماعية في عصر من عصور التحول، في المجتمع العربي » [7].

إن نص (الوهراني) من عيون النثر العربي الجزائري، بل هو أجود نص -أدبيا وفكريا- في النثر الجزائري فيما نعلم على أيام (الكاتب) إلا ما قد تكشفه الأيام و البحوث مستقبلا .

إن الـــتعامل مـــع البحث في تاريخ (الأدب العربي الجزائري) و إنجـــازات أعلامـــه لـــم يكشف بعد إذن عن أثر ما . . في فن المقامة قبل تجربة (الوهراني) .

و الشيخ (ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني) من فقهـــاء (الجزائـــر) و أدبائهـــا في غرب الوطن، عاش في فترة الصراع على الحكم في الغرب الإسلامي كله، فشهد سقوط الدولة المرابطـــية علـــى أيـــدي الدعوة (الموحدية) التي نهضت بدعوة (محمد بن تومرت) و زعامة (عبد المؤمن بن علي) فبويع الأول ســـنة (515هـــــ/1121م) مسميا أتباعه "الموحدين" منتحلا نسبا

(7) راجع تصدير المصدر السابق، ص:9.

عربـيا لــه « يدعم به صفة المهدي التي انتحلها شعارا لإمامته و رياسته الدينية السياسية . . » [8] . و توطد الحكم (الموحدي) فــي الغرب الإسلامي على يد خليفة (ابن تومرت) و تلميذه (عبد المؤمن بن علي) الذي « خرج في حشوده الموحدية الجرارة من تيـنملل فــي سنة (535هـ/1140م) و استمر زهاء سبعة أعوام يثخن في أنحاء المغرب . . و يوقع بالجيوش المرابطية مرة بعد أخـرى » [9] مــن غرب (المغرب العربي) إلى (شرقه) و حتى الأندلــس، حيــث تــم بسط النفوذ الموحدي بالحديد و النار، كما وصــفه (الوهراني) نفسه في المقامة (البغدادية) التي تحدث فيها عن هجرته من وطنه إلى (المشرق) كمقدمة لكتابه السالف الذكر، حيــث يقول عن صعوبة الحياة في وطنه، و معاناته فيها وضعا حــافلا بالهــزات السياسية العنيفة ما يلي: « لما تعذرت مآربي

---

[8] محمــد عــبد الله عــنان، عصــر المــرابطين و الموحــديــن في الأنــدلــس، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشـر، القاهرة، 1383هـ/1964م، ط:1، ص:160.

[9] المرجع السابق، ص :169.

و اضطربت مغاربي ألقيت حبلي على غاربي و جعلت مذهبات الشعر بضاعتي، و من أخلاف الأدب رضاعتي، فما مررت بأمير إلا حللت ساحته، و استمطرت راحته و لا وزير إلا قرعت بابه و طلبت ثوابه و لا بقاض إلا أخذت سيبه و أفرغت جيبه، فتقلبت بين الأعصار و تقاذفت بي الأمصار حتى قربت العراق، و سئمت من الفراق، فقصدت مدينة السلام لأقضي حجة الإسلام، فدخلتها بعد مقاساة الضر و مكابدة العيش المر، فلمّا قرّ بها قراري، و انجلى فيها سراري، طفتها طواف المفتقد، و تأملتها تأمل المنتقد، فرأيت بحرا لا يعبر زاخره، و لا يبصر آخره، و جنة أبدع جنانها و فاز باللذة سكانها، لا يميل عنها المتقون، و لا يرتقي إلى صفها المرتقون، فأرحت نفسي من سلوك الغور و الفجّ، و جلست أنتظر أيام الحجّ، وتاقت نفسي إلى محادثة العقلاء و اشتاقت إلى معاشرة الفضلاء، فدلني بعض السادة الموالي إلى دكان الشيخ أبي المعالي، فقال هو بستان الأدب، و ديوان العرب، يرجع إلى رأي مصيب، و يضرب في

كـل علم بنصيب، فقصدت قصده حتى جلست عنده، فحين نظر إلـي و رأى أثر السـفر علي بدأني بالسلام و بسطني بالكلام، و قـال: مـن أي الـبلاد خرجت و عن أيها درجت ؟ فقلت من المغـرب الأقصـى و الأمد الذي لا يحصى، و من البلد الذي لا تصـل إليه الشمس حتى تكل أفلاكها و تضج أملاكها، و لا القمر حـتى يـتمزق سرجه و يتداعى برجه، و لا الرياح حتى يحجم إقدامها و تحفى أقدامها. قال : كيف معرفتك بدهرك و من تركته وراء ظهرك، فقلت : أما البلاد فقد دستها و جستها، و أما الملوك فقد لقيت كبارها و حفظت أخبارها . . . فأي الدول تجهل و عن أيهـا تسأل ؟ فقال: أول ما أسألك عن دولة الملثمين و أبناء أمير المسـلمين، فقلـت:هيهات يا بُعْد من مات، خمدت نارهم و بادت آثارهم و اسود ناديهم، و ملكتهم أعاديهم:

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم ... بعد الممات جمال الكتب و السير

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا ... أخنى عليها الذي أخنى على لبد

قال: فما تقول في عبد المؤمن و أولاده و سيرته في بلاده ؟
فقلت: مؤيد من السماء مسلط على من فوق الماء، خضعت له ذوو التيجان و خدمته الإنس و الجان، ولو أن للقلم لسانا و للورقة إنسانا لتألمت و تظلمت، و لأنشدتك في الملأ، قول الشيخ أبي العلا:

جلوا صارما وتلوا باطلا وقالوا صدقنا فقلنا نعم !

و لكن السكوت عن هذا أنجح ومسالمة الأفاعي أصلح »[10].

ولد الوهراني في (وهران) على الأرجح لقرينة النسبة، و بها نشأ في وضع متقلب، حيث يلاحظ تأسفه على الحكم المرابطي و ضيقه بالحكم الموحدي، ولد في تاريخ لا يزال مجهولا، و هاجر من (الجزائر) بعد سنة (565هـ) إلى المشرق العربي، فيذكر (خير الدين الزركلي) صاحب (الأعلام) أن (الوهراني) « قدم الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين، فاجتمع فيها بالقاضي الفاضل و العماد الإصبهاني و غيرهما من

(10) الوهراني، منامات الوهراني و مقاماته و رسائله، ص : 3.

أئمـــة الإنشاء »... [11]. و من (مصر) انتقل إلى بعض الأقطار العربـــية الأخرى، كالعراق و سوريا، حتى استقر في (داريا) من قـــرى (دمشـــق) و فـــيها تولـــى الخطابـــة حيث لقي ربه سنة (575هـــ/1179م) تاركا عدة آثار أدبية و فكرية، منها مجلد في الـــتاريخ صرح به هو نفسه، و لم تعرف طبيعته، كما ذكرت له أعمـــال أخـــرى، لكن يبقى أهمها كتابه الأدبي الفكري (المنامات و المقامـــات و الرسائل) و هو (ديوان) من النثر الأدبي العربي الجزائري الجيد، حتى وصف صاحبه أنه من "أئمة الإنشاء". كما تعلن عن ذلك مناماته و مقاماته و رسائله، فقال« ابن خلكان لو لم يكـــن فيها إلا المنام الكبير لكفاه، و زاد ابن قاضي شبهة: فأنه ما سـبق إلـــى مثله» [12]. و هي كلها أحكام تضع (الوهراني) في مكانـــة رفيعة كأديب، فضلا عن كونه عالم دين، و بعضها يحدد طبـيعة ما يكتب الوهراني من فنون الأدب، لميل له نحو الكتابة

---

[11] **الزركـلـي خـيـر الـديـن، الأعـلام، دار الـعـلـم لـلـمـلايـيـن، بيروت، لبنان، 1980 م، م:7، ط:5، ص:19.**

[12] **المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.**

الساخرة بحيث تصفه بأنه « منشئ من أكابر الظرفاء » لكنه حين التقى أئمة الأدب مثل (العماد الأصبهاني) من أئمة الإنشاء و لم يكن من طبقتهم؛ فعدل عن طريق الجد و سلك مناهج الهزل؛ فأقبل الناس على أقواله و رسائله ، و هي أحكام مستمدة أساسا من مجموع (منامات الوهراني و مقاماته و رسائله) الذي سبق ذكره، فما هو هذا العمل الأدبي للوهراني في خطوطه العامة ؟ لقد حفل هذا المجموع بتحف أدبية من النثر الرفيع، تزاوج فيها الواقع بالخيال، فيها تصوير لجوانب مختلفة عديدة لعصره، كما فيها تصوير لحاله . . و حياته في صلاته بالناس حكاما و أدباء و سواهم، فحفلت بالنقد اللاذع و التهكم و السخرية المرة، من أوضاع سياسية و ثقافية و اجتماعية، مع نزوع واضح إلى الكتابة الترفيهية التي توظف تارة، أو من دون وظيفة تارة أخرى، الأمر الذي جعل الكاتب يجنح كثيرا إلى الإحماض، كوسيلة (ترفيهية) مبتذلة لدغدغة مشاعر (الغوغاء) ذات الميول السوقية، في سلوك و تعبير يحفل بالكلمات البذيئة الخاصة بالغريزة الحيوانية نفسها،

و هــي أمــور تخرج عن نطاقنا هنا حيث نحصر حديثنا في هذا المجموع الحافل بشتى الموضوعات، ففيه الرسائل الأدبية بطابعها الشخصي أو العام في صيغها الأدبية الرفيعة، و هناك (المنامات) التي يلعب فيها الخيال دورا كبيرا، كما أن هنالك ما يمكن وصفه بالصور و الخواطر و الملح، كما أن هنالك بالضرورة (المقامات) التــي ألقت بظلالها على الموضوعات الأخرى أو بعضها بعبارة أدق، كالمــنامات، و الرسائل. ومن قراءة (المجموع) تبدو غلبة (الرســائل) مــنها السياســي، و مــنها الفقهي، و منها الأدبي، و الإخواني، و الخاص، كهذه الرسالة إلى أمّه في (وهران) و قد نحــا فيها النحو الذي نهجه في كتابته الساخرة المشبعة بالظرف و الفكاهة، فقال :« مني إلى أمي، أما بعد: فإني ما أفلحت عندك و لا ها هنا، دخلت القيروان بكرة، و اشتهيت أخذ الولاية ضحوة، و أتزوج بنت السلطان عشية، فلم تساعدني المقادير، فرجعت إلى سوق البز أبيع و أشتري، أبيع ثيابي و أشتري الخبز إلى أن نفدت البضــاعة، فلزمــت المســاجد في أوقات الصلوات أسرق لو الك

المصلين، و أرهنها عند اليهود الخمارين . . طيبي قلبك من جهتي، و إن قيل لك عني إنّي مدبّر فلا تصدقي و السلام »[13] .

و قد اشتمل ضرب من رسائله الإخوانية السياسية و الأدبية على ملح شتى و طرائف مختلفة، و منامات جاءت في السياق من دون أن تبدو نابية، كحال (المنام الكبير) الذي استغرق نحو أربعين صفحة، انطلاقا من مخاطبة صاحبه التي افتتحها بالشعر مرحبا بالرسالة الوافدة عليه، منوّعا بين الإخبار و الوصف و الحوار ، فيقول بعد بيتي شعر « وصل كتاب مولاي الشيخ الأجل الإمام الحافظ الفاضل الأديب الخطيب المصقع الأمين، جمال الدين ركن الإسلام، شمس الحفاظ، فخر الكتاب زين الأمناء ... فكان ألذ من النار في عين المقرور، و أعذب من الماء البارد في صدر المحرور، و تناوله فكان في قلبه أحلى من الدراهم، و أنفع لجراح البعد من المراهم، فلما فض ختامه و حط لثامه أبصر فيه خطّا أجمل من رياض الميطور، و لفظا أرق من نسيم

---

[13] الوهراني، المصدر السابق، ص :207.

الروض الممطور، قد استفتحه سيدنا بكل لفظ مذهب، و ذهب فيه من التعاظم إلى كل مذهب، و أرجو له ذلك من الله بحسن العون فإنه يقال إن الفال مقدمة الكون .

على أنه وجد بين جوانح الخادم من نار الشوق أجيجا، لو أن النار كلست الكلاسة ... و يريد الخادم أن يطلق يده و قلمه، و يسابق بها لسانه و فمه، فإنه قد لحقه من الضجر و الكلال ما يلحق الجحش الصغير إذا حمل أحمال البغال القروح وانضاف إلى ذلك استعجال حامله و توثبه للرواح. و لقد فكر الخادم ليلة وصول كتابه إليه في سوء رأيه فيه و شدة حقده عليه، و بقي طول ليلته متعجبا من مطالبته له بالأوتار الهزلية بعد الزمان الطويل، و امتنع عليه النوم لأجل هذا إلى هزيع من الليل. ثم غلبته عينه بعد ذلك فرأى فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت، و كأن المنادي ينادي : هلموا إلى العرض على الله تعالى، فخرجت من قبري أيمم الداعي إلى أن بلغت إلى أرض المحشر، و قد ألجمني العرق، و أخذ مني التعب و الفرق، وأنا

من الخوف على أسوإ حال، و قد أنساني جميع ما أقاسيه عظيم ما أعانـــيه من شدة الأهوال، فقلت في نفسي : هذا هو اليوم العبوس القمطرير .. فما انقضت أمنيتي حتى طلع عبد الواحد بن بدر من جانبي، و قال لي : الساعة رأيت عدة جوار يطلبونك، مع بعضهم أولاد يزعمون أنهم منك، و أنت تنفيهم عنك، و بعضهم يدعي أنك بعـــتهم لغيرك و هم حبالى منك .. فبينما نحن في المحاورة و إذا نحـــن بمـــالك خازن النار قد هجم علينا و قبض على أيدينا ... و سحبنا إلى النار، فارتعنا لذلك ارتياعا عظيما ... و حانت مني التفاتة فأرى أبا المجد بن أبي الحكم عابرا و في يده ورقة مذهبة حمـــراء، و هو رايح بها يهرول فسلمنا عليه، و سألناه عن حاله، فقـــال: لولا ملازمة الصلاة بين المقصورتين لكنت من الهالكين. إذا بضـــجة عظـــيمة من جنب المحشر و الناس يهرعون نحوها مستبشرين فملنا جميعا نحوها و إذا بحلقة فسيحة عليها من الأمم مـــا لا يحصى كلهم يصفقون و يزهزهون، و أربعة في وسطهم يرقصـــون و يلعـــبون، إلى أن سمعوا و وقعوا على الأرض لا

ينفســـون، فسألنا بعض أولئك الحاضرين، عن ذلك الفرح، وعن الأربعة الذين يرقصون، فقال : أما الثلاثة فعبد الرحمن بن ملجم المرادي، و الشمر بن ذي الجوشن الضبابي، و الحجاج بن يوسف الثقفـــي، و الشـــيخ الكبـــير: أبو مرة إبليس فجار الخلائق و هم مجرمو هذه الأمة ...» [14] .

إن هذا (المنام) للكاتب زاخر جدا بالقضايا الفكرية و التاريخية و الدينـــية مما يخرج عن نطاق الحديث عنه، لكن يدخل فيه: أن الكاتـــب اســـتمد إطار (المقامة) فإن نقل ميدانها من عالم الواقع الدنيوي، إلى عالم الغيب في (الآخرة) فقد وظف شكل المقامة، في الصـــياغة العامة. أما في الشخصيات فقد بقي موزع الرؤى بين الشخصيات الواقعية التي مرت في حياة المسلمين مثل (ابن ملجم) و(الحجـــاج بن يوسـف) و الشخصيات الخيالية التي كانت بكثافة، سواء منها البشرية أو سواها . إلى جانب ذلك استمد (الوهراني) عنصـــرا آخـــر من تقنيات (المقامة) و هو حرصه على السجع،

(14) المصدر نفسه، ص:17. 18. 21. 23. 24. 25. 29. 32. 35. 36.

و طلـــبه الغريب اللغوي، مع ميل تعليمي واضح، في ذلك و في سواه : في شؤون التاريخ و العقيدة، و الإيمان .

إن كانـــت إذن ظـــلال المقامـــة لا تكاد تبرح محطة في هذا المجموع لابن محرز فإنها شكلا ترد في نحو أربع مقامات . هي و غـــيرها في هذا المجموع تعبر عن ميلاد هذا النوع الأدبي في الأدب الجزائـــري لأول مرة في القرن (السادس) الهجري (الثاني عشر) الميلادي . لقد كان للوهراني فضل التأسيس لهذا النوع في الأدب الجزائـــري، لكـــن بعدما غادر وطنه؛ فلماذا أولا ؟ ثم ما طبـــيعة هـــذه المقامات ؟ ما شكلها الفني ؟ ما علاقتها بمحيطها و مبدعها ؟

لقد تصدرت (المقامة البغدادية) كتابه، و يبدو أن هجرته كانت ســـببا فـــي إبداعـــه هذا، و لو بقي الرجل في (الجزائر) ما كان (المحـــيط) يســـمح بتفـــتّق موهبته، فاطرد في هذه الفترة المناخ المـــناوئ لإبداع الكاتب في (الجزائر) فلا يكاد المبدع الموهوب يقبل على محيط ثقافي صحي خارج الجزائر حتى تتفجر إمكاناته،

فيكبر عطاؤه، و يجود فنه، و يحظى بالاهتمام و التقدير، و هو ما حـــدث للوهرانـــي، كمـــا حدث لسابقين له أمثال (بكر بن حماد) و لاحقيـــن أيضا أمثال (المقْري). و (المقامة البغدادية) صورت ملامـــح مـــن حـــياة (الوهراني) نفسه، كما صورت ما آلت إليه الأوضاع في (المغرب العربي) من صراعات على (الحكم) الذي انـــتهى إلى الأيدي (الموحدية) فهو يعلن في مطلع مقامته أنه شد رحالـــه إلى (المشرق العربي) بعد سوء الأوضاع في بلده، حتى وصـــل (بغـــداد) حيـــث أرشد إلى كتبي أديب فاضل يسمى (أبا المعالـــي) شخصـــية حقيقية، توفيت سنة (568هـــ) فحاوره عن الأوضـــاع فـــي (المغرب العربي) و في (مصر) فذكر له سقوط (الدولـــة المرابطـــية) تحت ضربات (الدولة الموحدية) و خروج (صـــقلية) مـــن أيدي (المسلمين) إلى أيدي (النورمانديين) الذين اســـتفادوا من خلاف المسلمين على الحكم فيها و صراعهم، كما أعطى تقييمه لانهيار الدولة الفاطمية في (مصر) و وصول الحكم (الأيوبي) فقال مجيبا صاحبه (أبا المعالي) عن (الفاطميين)« أعلم

أنه لما أحان الله حينهم أظهر شينهم، و ألقى بأسهم بينهم، فضرب زيد عمروا، و قتل خالد بكرا، و كسر قراب السيف،و أغمد في الشتاء و الصيف، فما انقشع فسادهم حتى فنيت آسادهم، و لا برح عنادهم، حتى تفرقت أجنادهم؛ فقصرت حبال الدولة عن ربطها، و ضعفت رجالها عن ضبطها، فبقيت كالجارية الحسناء التي أبرزها الحجال، و أسلمتها الرجال ... و سبق إليها رجال الفرنج، فصيروها كرقعة الشطرنج يجوسون خلالها، و يتفيّأون ظلالها فأنف من ذلك ذوو الأحلام و ملوك الإسلام فانتدب لها من بني شادي الأسد الهصور، و الملك المنصور – و هو عم صلاح الدين الأيوبي- فرماها بهمته ... فلما انتهى إلى كماله و بلغ في النهاية من آماله و فاز بالرضوان في قربه انتقل إلى ربه، و أجمع الناس بعد موته على تخليدها في أهل بيته، لما يعلمون من رياستهم، و حسن سياستهم، و ما يخبرون عن سماحهم و طول رماحهم، فاتفق أهل الحل و أرباب العقد و الحل، بعد النظر في الأواصر، و الاختبار للعناصر على تخليدها لابن أخيه

الملــك الناصر (و هو صلاح الدين الأيوبي) الذي حكم في الفترة الممــتدة مــن 567 و 589 للهجــرة لمــا جبل عليه من حميد الأوصاف، و إيثار العدل والإنصاف» [15] .

إن حديث (الوهراني) كان حديث الرجل الذي عاش فترة في (مصر) فأدرك أوضاعها كما فهم الأوضاع في الغرب الإسلامي، و قــد أبلــغ عن ذلك في حديث عام مع شخصية معروفة، غير خيالــية في (بغداد) فصورت (المقامة) رحلته من (المغرب) إلى (المشــرق) و جــاءت فــي شكل (مقامة) لكن أبطالها معروفون تاريخــيا، و أبقــى فــيها على جانب (الاستعطاء) فلم يكن ذلك (الاســتعطاء) هــنا صــورة للكدْيــة لــدى أبطــال (الهمذاني) و (الحريري) و إنما في شكل تكسب بالأدب كشأن الشعراء على أيامــه، متوســلا بفنه الأدبي، و قد أعلن ذلك صراحة في مقدمة (الــبغدادية) حيــن قال « جعلت مذهبات الشعر بضاعتي، و من أخــلاف الأدب رضــاعتي، فما مررت بأمير إلا حللت ساحته،

(15) المصدر نفسه، ص : 5.

و اســـتمطرت راحـــته، و لا وزيـــر إلا قرعـــت بابه و طلبت ثوابه...» . و لذا فحين التقى (الوهراني) الشيخ (أبا المعالي) في (بغـــداد) شرع يسأله عن رجال الحكم و منهم الذين يمكن التقرب مـــنهم، فســـأله: « فمـــا تقول في عضد الدين ؟ فقال : جبل حلم راســـخ، وطود علم شامخ، و سهم رأي صائب و نجم عدل ثاقب ... فقلت ما تقول في حلول بابه و استمطار سحابه ؟ فقال : والله لـــو قصدت باب الوزير، لأمطرك من وبله الغزير ... و يزري عندك بمن لقيته من الأمراء، و من شاهدته من الوزراء، فقلت له: إذن والله أشـــكره شكر الأرض للسماء، و الروض الزهر للماء، و لاســـيما إن أخـــذ لـــي من الخليفة خلعة سنية منيفة، أستضيئ باقتباســـها، و أتـــبرك بلباسها، و أنشرها على منار الإسكندرية، و أطـــرحها على ساحل المرية، و أكبت بها الأقران في وهران، و أطلق بشكره اللسان في تلمسان، و أدعو له في مدينة فاس على عدد الأنفاس، و أثني عليه في آغمات إلى وقت الممات» .

في هذه الفقرة ما يؤكد النية المسبقة لدى (الوهراني) في العودة إلى وطنه مرورا بمصر، على نفس خط الذهاب، لكن الأيام انتهت به إلى إحدى قرى (دمشق) خطيبا في مسجدها حيث لقي ربه.

لقد وصف (الوهراني) جوانب من رحلته وصفا لماحا في شكل مقامة، اعتمدت الواقع من دون خيال في عوالم الشخصيات إلا الخيال الأدبي في إبداع الصور الأدبية المتلاحقة و هي صور لدول تنهار و أخرى تنهض، كما هي صور لأشخاص، وصفات لتلك الدول أو لهؤلاء الأشخاص، بجوانبها المختلفة : السلبية و الإيجابية، المظلمة و المشرقة، في إطار من السجع الخلاب، قوامه الكلمات الأنيقة الخفيفة، القصيرة السريعة، التي لا يكاد الغموض يحتويها حتى تعود إلى سماء الوضوح : تجلي حقيقة، أو تعلن حكما، أو تحدّد موقفا من شخص أو قضية أو وضع. بدا (الوهراني) في ذلك طالب هناء في البال، تواقا إلى حياة أدبية و اجتماعية ثرية، شديد الضيق بصور النفاق والغدر، و أشكال

التكالب على الحكم، التي كانت سببا في ضياع أقطار إسلامية بين أيـدي أعداء الإسلام و المسلمين، فاتضح أنه انطلق من (وهران) ذا تـوق إلـى حياة (البلاطات) غير أنه سرعان ما انصرف عن تدبـيج الشعر على أعتاب (الأمراء) إلى ضرب من النثر الحافل بالســخرية، فطرق بابا من الفن وصفه (ابن خلكان) بالقول : إنه « ما سبق إلى مثله » .

إذن كانـت محطته الأولى (مصر) أيام (صلاح الدين الأيوبي) الذي حكم من (567) حتى (589) من الهجرة، و منها انطلق نحو (بغـداد) و يبدو أن موهبته في النثر كانت أفضل من موهبته في الشـعر، فلم يفلح في ولوج حياة البلاطات، فانصرف إلى ضرب مـن القول، ضمّنه في جوانب شكلا من أشكال التعبير (الشعبي) علـى مسـتوى المضـمون و الصـورة، لا على مستوى اللغة. الانصراف عن حياة البلاط إلى حياة الناس كما تعكسه نماذجه مما جعل صاحب (الأعلام) يقول: إنّ (الوهراني) اجتمع في (مصر) بأمثال (العماد الأصبهاني) و لم يكن من طبقتهم فعدل عن طريق

الجـد، و سلك مناهج الهزل، فأقبل الناس على أقواله و رسائله، و بـدل أن يعـود إلى (وهران) ظافرا بخلعة "سنية" من الخليفة لـيغمره الصـمت، آثر الانغماس مع الناس في الحياة تاركا أثرا أدبـيا لـم يلق بعد الاهتمام الضروري في بحوث و دراسات، لا جامعية و لا حرة عامة .

هـذا الهـزل في كتابات (الوهراني) شمل أيضا مقاماته، فإن تـراجع في (البغدادية) فقد حضر بقوة في غيرها، و في المقدمة تلـك المقامـة النقدية، في التعريض اللاذع بموقع المعالم الدينية و علمـاء الدين، وصلتهم بالحكم، و قد أجراها (الوهراني) على (لسـان جـامع دمشق) و هو (أمير المساجد) التي تهرع إليه في الملمـات، فكتب (الوهراني) قائلا : « لما تحكمت يد الضباع في مسـاجد الضـياع، و ارتـج باب العدل و أغلق، و نبذ كتاب الله و خلـق، فزعـت المساجد إلى جامع جلق، و هو يومئذ أميرها، و علـيه مدار أمورها ...» [16] فأعلنوا إجلالهم له و احترامهم،

---

[16] المصدر نفسه، ص :61.

داعيـــن لــــه بالخير، اينهوا « إلى مجلسه السامي ما يقاسونه من جور العمال و تضييع الأعمال، و نهب الوقوف و تضييع الأعمال و الســقوف، و خــراب الحــيطان و السقوف، و قد ألفهم الظلم و الظلام، و أنكرهم المؤذن و الإمام، فلا تسمع لهم حسيسا، و لا تـــرى فـــيهم أنيسا، إلا أذان البوم، و تسبيح الغيوم، و قد ركعت حـــيطانها و ســـجدت سقوفها و أركانها، و انصرفت من الصلاة أربابها و سكانها ...» .

ثــم تضيف (المساجد) تخاطب أميرها (جامع الأمويين): « قد فزعنا أيها الملك إلى بابك، و أوينا إلى جانبك، فافعل معنا ما هو أولـــى بك ... فلما وقف الملك على هذه الشكاية، و علم بمقتضى هذه الحكاية : استوى جالسا في مقعده، و ضرب بيده، و قال ... و هو يقلب طرفه في الجموع و يكفكف أسراب الدموع ... و أذن لهم في الكلام، فابتدأ جامع (المزة) المقال، و تقدم بين يدي الملك و قــال : الحمـــد لله الذي قضى علينا بالخراب، و صير أموالنا كالســـراب، و جعلنا مأوى البوم و الغراب ... أما بعد أيها الملك

السعيد ثبت الله قواعد أركانك، و شيد ما و هي من بنيانك، فإن الخراب قد استولى على المساجد، حتى خلت من الراكع و الساجد ... ».

و على هذا النحو يشرع كل مسجد يعرض متاعبه و همومه، على الملك جامع (الأمويين) في (دمشق) فإذا ما انتهى الجميع، تنحنح (الملك) « عجبا و حرك رأسه طربا، و قال : .... يا معشر المتكلمين، و طائفة المساجد المتظلمين، إنه و الله لا ينتهي إليكم من الجور إلا ما يفضل عني، و لا يصل إليكم إلا ما يستعار مني، فلولا أن أركاني سليمة، و بنيتي قديمة، لأصبح جامع بني أمية يغني عليه: دار مية، و قد والله شرقت بغصتكم، و حرت في قصتكم، إن رفعت أمركم إلى الملك العادل ردكم إلي الشيخ الغافل، فلا يراعي لكم حرمة، و لا يكشف لكم غمة، و لا يرقب فيكم إلاّ ولاذمة ... و الرأي عندي أن تكتبوا إلى الشيخ قصة و لا تتركوا في صدوركم غصة ... فإن التأم رأيه برأيكم، و إلا فالسلطان من ورائكم، أقول قولي هذا و أستغفر الله لي و لكم » .

فكتبوا على لسان (ملك الجوامع) بدمشق، إلى (الشيخ سعد بن أبي عصرون) قائلين: « أما بعد يا غدار، لقد هيجت الألم، و أبهمت الظلم، ومن استرعى الذئب فما ظلم ... طالما ... تغاضينا عن جنايتك، حتى اكتنزت الأموال و اختزلتها، لقد عجبت أيها الشيخ من محالك في ابتداء حالك، من فساد أمرك عند آخر عمرك، و من فساد دينك و ضعف يقينك ...» . فأشبعوه وابلا من المثالب ليجيء رده، كما صاغه الوهراني قائلا : « فلما وصل الكتاب إليه، و قرأ ما انطوى عليه، فكر و قدر، فقيل كيف قدر،ثم نظر ثم عبس ثم أدبر، و استكبر، ثم لعن المساجد و بانيها، و شتم المشاهد و قانيها، ثم قلب الرقعة و كتب فيها : .... وصلت رقعتك أصلحك الله كأنها ضربة موتور و نفثة مصدور» لينتقل إلى ضرب من الشتائم حتى الفحش اللفظي، و يبعثها إلى لسان حال (الجامع) الذي استقبلها، فقام « و قعد و أبرق و أرعد، و قال: اكتب يا غلام، باسم الملك العلام، من العاتب الواجد إلى الملك العادل ... أنت تعلم أن الله قد طهر

بقعتي و كرمها، و شرف بنيتي و حرمها ... فأنا المشرف في كل قرآن و المعظم في كل أوان، فكيف يسعك أيدك الله أيها الملك التغافل عن حالي، و التحين لنهب أموالي، و يدك مبسوطة في عباد، و مطلقة في جميع البلاد، ما يكون جوابك يوم النشور،إذا بعثر ما في القبور.....».

و ينهي (الوهراني) مقامته (الرسالية) هكذا « فلما وقف الملك العادل على كتابه و تجرع كأس عتابه التفت إلى المساجد فرثى لهم و سدد أحوالهم، و لما علم فحوى شكايتهم و عرف كنه قضيتهم، أزال عنهم ظلمهم، و (أسرها يوسف في نفسه و لم يبدها لهم) ثم نظر إلى ابن أبي عصرون، فأنزله و اعتزله، و حجبه عن بابه و اختزله، و ألقاه في سجن الصدود، و خلده فيه إلى يوم الخلود، و قرأ عليه ألا بعدا لمدين، كما بعدت ثمود، و السلام» .

الجوانب التاريخية و الاجتماعية عديدة، كما أن عناصر الرمز في هذه (المقامة) إلى (السلطة) و الفساد الأخلاقي و الاجتماعي فيها كثيرة، كما هو شأن الانحراف في الدين .

استغل الكاتب في ذلك أسلوب الحوار بالخطاب المباشر، و بالبريد تذهب فيه الرسالة بلغة، و تعود بأخرى، بمستوى متحايل أو مخاتل، استخدم الكاتب في ذلك سجعا، مجردا من المساجد شخصيات ناطقة بلسان (حال) لوضع، و (مآل) لقيم في العمل و الإخلاص، و الوفاء في خدمة الناس، مع التقيد بشرع الله الذي تنسى فيه الأهواء السياسية، و المآرب الدنيوية، حرص (الوهراني) في ذلك على تضمين (النص القرآني) تارة موظفا، و تارة يرد بطريقة اعتباطية عشوائية، استسلاما للنسق اللفظي وحده .

لقد لجأ (الوهراني) في مقامته (المسجدية) إلى ضرب من الإيحاء و الترميز، على لسان حال (المساجد) و هي تهرع إلى رئيسها (المسجد الأموي) لرصد امتعاض من أوضاع متدنية هجرت فيها المساجد (فقل الراكع و الساجد) لله، فتطلب الأمر خطابا إلى (فوق) لدى (الشيخ) الذي لقى (تأديبا) من (الملك) الذي اتخذه (كبش فداء) لتغطية قصوره، و ضيقه بالعلم و رجاله،

و الديـــن و مراكزه، فيبقى لسان حال (المساجد) لسان أمة أولا، و علمـــاء دين و رجال ثقافة و فكر ثانيا، قدرها المعاناة المتعددة الوجـــوه، خصوصـــا حيـــن تلقى الضيم من حكام جهلة معادين بطبعهم، و لطبيعة مستواهم جهلة غير أن الكاتب لم يوفق في بناء المســـار الحواري، في سياق الأحداث انطلاقا من (انتفاضة) حال (المساجد) و انتهاء بقرار (الملك) و مصير (الشيخ) فبدت التجربة أقـــرب إلـــى لعبة عشوائية، بقيت تعوزها عناصر كثيرة مختلفة للتمكين لها بلغة الفن و الأدب : حدثا، و صورة، و رمزا .

لقـــد كان (الراوي) في (البغدادية) ضمير المتكلم معلنا هجره لمغاربـــه، و حلولـــه (بغداد) و أسند الكاتب الضمير في المقامة (المســـجدية) إلـــى مجهـــول مطلـــق بتعبير عام هو« قال بعض العارفين... لما تحكمت يد الضباع في مساجد الضياع» ليجرد من المســـاجد شخوصـــا ناطقـــة بحال و مآل. أما« مقامة في شمس الخلافـــة» فقد استدرج اسم (عيسى) لدى (الهمذاني) لكنه بدل أن يكون (عيسى بن هشام) نكرة صار لدى (الوهراني) : (عيسى بن

حماد الصقلي) و بقي رغم الصفة (نكرة) مع بعض الملامح التي تكـــاد تقترب من شخصية (الكاتب) لارتباطها بظروف رحيله من (المغــرب العربــي) إلى (المشرق) و هي صفة يشاركه فيها من دون شــك آخرون : هاربون بأفكارهم و معتقداتهم، من المنطقة نفســها أي بالغــرب الإسلامي عموما، يومئذ بما فيه (الأندلس) و (صــقلية) فيفتتح المؤلف مقامته هكذا :« حدثنا عيسى بن حماد الصقلي، قال لما اختل في صقلية الإسلام و ضعف بها دين محمد علــيه الســلام، هاجــرت إلى الشام بأهلي، و جعلت جلق محط رحلـــي، فدخلـــتها بعد معاناة الضر، و مكابدة العيش المر، فلما انجلى فيها سراري، و قر في بعض محلاتها قراري...رأيت معي في الحارة...» [17] إلى آخره.

فــالملاحظ هـــنا أن الجملتيـــن الأخيرتيـــن بنصهما الحرفي اســتعملهما الكاتب في المقامة (البغدادية) و هو حين حل (بغداد) هـــناك وجـــد مواطـــنا عالما، من البلد يحاوره، أما هنا فقد قابل

---

[17] المصدر نفسه، ص : 97.

شخصا شرع يتفحصه، يملأه العجب و يدعي مشرقية، بينما استقر في انطباع (ابن حماد الصقلي) أن صاحبه من (المغرب) و دفعه الفضـــول إلى تلمس اليقين من صديق له « فقلت عرفني مربضه و أي بحر لفظه، فقال : أما الطينة فمن قسنطينة و أما القبيلة فمن زويلـــة و أمـــا الـــنحلة فمن حمير الفحلة». فهو إذن عربي من (الجزائـــر) قـــدم مـــن مدينة (قسنطينة) وجد نفسه في حاجة إلى المـــال، فســـاقه القدر « إلى عجوز مغربية، متحكمة في خمسين صبية، تعلم البناة الغزل، و تجنبهن المجون و الهزل» فتعلقت به، حتى تزوّجها، و أصرت على أن يكون فقيها، و هي تدفعه للقراءة و الـــدرس، فيعلـــن لها أنا « و الله ما أفرق بين الحروف و بين قرون الخروف » لكنها تصر، بحثا عن مهابة لها و له، فلا يجدي تمـــنعه خوفـــا، و اكـــتفاء بحاجتها الطبيعية فيه، فيطلب نصحها للظهـــور بمظهـــر العلماء :« فقالت خذ اللفظ بأناملك من شفتيك، و زاحـــم الفقهـــاء بمنكبيك، و ابصق في وجه الشيخ و لا جناح عليك...اجسر على القوم فما هو إلاّ بياض اليوم، و اعلم أن الفقه

ليس هو شيء غير النفاق و الزعاق، و تلويث وجه الخصم بالبصاق » فاستقر في نفسه: أن العلم رياء و ادعاء و مظهرية ووقاحة و نفاق، و هي أمور وجد نفسه يتوفر عليها، فقال لها: « إن صدقت فأنا أكون إمام الوقت. و قام في ذلك الأوان حتى دخل على الفقهاء في الإيوان، فهابته قلوب الجماعة، و خافوا أن يكون من أهل البراعة، فأنصفوه في السلام، و بسطوه بالكلام و انسوه بالمحاضرة حتى جاء وقت المناظرة، فحينئذ برز بالوجه الوقاح و الإفك الصراع...فوقع الناس في البلاء، و علموا أنه دلو من الدلاء، و تحققوا أن الرجل كالسطل لا يصلح إلاّ للإصطبل... ». و هكذا ينحو (الوهراني) نحوا ساخرا في تقديم شخصياته، في صور مضحكة، تهكما بها في آمالها السطحية، و طموحها الأهوج، و أهوائها السخيفة، فمثلما بدت العجوز (المغربية) امرأة سخيفة الأفكار و الأهواء، بدا صاحبها: جلفا مغرورا، أنانيا في كل الحالات، مما جعله في نهاية المقامة ينقلب عليها، و هي التي حاولت أن ترفعه من الحضيض درجات،

و عــادا فــي الأخير إلى طبعهما :« قال عيسى بن حماد: و لما ارتفعــت الهمة و امتنعت الذمة : تغير على زوجته بعد أن كان يفديهــا بمهجــته ... رأيــتهما يوما يشالقها و تشالقه، و يخالفها و تخالفه، و يقول لها : ألست تعلمين يا جيافة أنني لقبت من أجلك بزوج العلافة، فلعن الله الأشفار و الأظفار، و ما تحويه الأخصار من حانوت العطار ».

إن الوظيفة الفكرية الاجتماعية واضحة في سياق البناء و رسم الشخصــيات فــي هــذه المقامــة، يبدو من خلالها التركيز على الســخرية مــن المظهرية، و ادعاء العلم و الوجاهة الاجتماعية، غــير أن تقنــية البناء تبقى ضعيفة. فهذا القسنطيني بقدرة عجيبة يســتحيل من شخصية غامضة يبحث (عيسى بن حماد الصقلي) عــن فــك ألغازهــا إلى شخصية تقع مكشوفة السلوك و الروح والــنوازع، من دون نمو تتكفل به الأحداث في سيرها، رواية أو ســردا، أو غــير ذلــك، لكن حرص الكاتب على تعرية مظاهر

الـزيف و الـنفاق فـي قالب ساخر جعله مشدودا إلى موضوعه مرتبطا بفكرته من دون غاية أخرى فنية غير الزخارف اللفظية.

و هـذه الجوانـب يستمر أهمها في أقصر مقامات (الوهراني) و آخـرها، و هـي (المقامة الصقلية) التي يسند فيها الرواية إلى نفسـه مـرة ثانـية كما فعل في أول (مقامة) بمجموعه (المقامة البغدادية) فيفتتحها هكذا :« قال الوهراني دخلت مدينة صقلية في الأيـام المتولية، فرأيتها محافل الأوصاف على طريق الإنصاف، فعشـقها شيطاني فأقمتها مقام أوطاني: فحضرت يوما في بعض بسـاتينها مـع طائفـة من أهل دينها و فيهم أبو الوليد القرطبي، سلطان الكلام يأمره فيوالفه، و ينهاه فلا يخالفه» [18].

لقـد هـيأ (الوهرانـي) لحدثه مكانا يجسد صور (المقامة) أو (المقام) لسماع حديث يدور، و نقاش يجري بين جماعة، جلوسا، أو فيهم : الجالس و القائم، و لكن فيهم الشخصية التي تتجه إليها الأنظـار أكـثر من غيرها، هي هنا شخصية (القرطبي) ليسأله

---

[18] المصدر نفسه. ص : 219.

القـــوم : « مـــا تقول في القاضي ابن رجاء ؟ قال مصباح دجي، و شـــيخ علـــم و حجـــي، و هو بيت القضا و كلمة عدل و حكم و رضـــا، نـــزه نفســـه عن الولائم، فلا تأخذه في الله لومة لائم» و هـــي صورة إيجابية ناصعة : في النزاهة و التعفف و مراعاة الحـــق، ســـرعان ما تندثر أمام صورة أخرى سلبية، مباشرة بعد الســـابقة، حيـــث يورد القرطبي مجيبا سائليه : « غير أنه عظيم الشقشـــقة، كثـــير البقبقة...يضيع مواقيت الصلاة، و يمنع يواقيت الصـــلات، لا يرثي للغريب و لا يتوجع، و لا يؤسي و لا يسأل و لا يـــتفجع، فنكـــب عن داره فلأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه » .

هاتـــان الصورتان المتناقضتان بناهما (الوهراني) ليسخر من (عـــالم بـــلا عمـــل) و مـــن (قول بلا فعل) و دفع الجماعة في (المجلـــس) ليتـــبع ذلـــك هـــو بسؤال آخر للقرطبي بحثا عن الإضحاك : يتعلق بوالد القاضي السابق الذكر: « قلت : فما تقول فـــي الشـــيخ أبـــيه ؟ قـــال: كـــان رحمة الله عليه يتناعس على

الخصـــمين، فلا يوقظه إلا سلسله الكفين، و لو قبضت على أنفه بالكنبتيـــن»... . فالمقامـــة علمـــية، بحثت عن صورة للعالم بين (أقوالـــه) و (أفعاله) انبثقت فيها الأسئلة من عدة أطراف، و كان الطـــرف المجيـــب واحـــدا وحيدا، بدا حجة، في الحكم و التقييم، ليكتســـي الموضـــوع قيمة أخلاقية مبطنة بالفكاهة و المزاح من دون فحـــش فـــي ذلـــك لينهيها المؤلف هكذا في صيغة وعظية « و ذو الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيها» .

لقـــد كانت الفكرة السائدة في مقامات (الوهراني) الإلحاح على الجوانـــب الفكـــرية في قالب فكاهي ساخر يبدو ضربا من اللهو، الأمـــر الـــذي جعل أحدهم يحكم عليه بالإنصاف عن (الجد) إلى (الهزل) تعبيرا عن قصور في ذلك الجد، بينما مرارة الحياة بكل جوانـــبها المخـــتلفة في وطنه (الجزائر) و خارجه كانت العامل الأكـــبر في هذا الجنوح إلى السخرية، فالانكسارات المتوالية، في الحـــياة الثقافـــية و الفكـــرية، و الإحـــباط في الحياة الاجتماعية و الشخصـــية، و الخيبات في الحياة السياسية و الاقتصادية: كلها

عوامـــل غير منزهة، جعلت الكاتب ينخرط في هذا الضرب من القول الذي اقتحم به ميدانا، لم يقلد فيه بشكل مباشر أحدا، و إن لم يـــتخلص من أثر ثقافته الأدبية و الفكرية التي كان لها أن تمارس سلطانها على أسلوبه و شخصياته، و رؤاه أيضا.

مـــن هـــنا نلاحـــظ أن شخصـــيات (المقامة) لدى (الهمذاني) و (الحريري) كانت مستقرة، و خيالية في الرؤية العامة، بينما هي متغيرة لدى (الوهراني) بعضها معروف و بعضها خيالي، فخضع فـــي ذلـــك إلـــى الحاجة التي يمليها الموقف و الرؤية، لا الشكل المعـــروف المـــتداول، و من هنا كان السجع جزءا من الأسلوب العربي الذي غدا مرغوبا فيه، بكل ما فيه من زركشة و إشراق، و موســـيقى عذبة، انطلقت من نموذجها القرآني، كنموذج معجز ببـــيانه و صـــوره ؛ فضـــمّن الكاتب (مقاماته) آيات من القرآن الكـــريم، كمـــا طعّمهـــا بـــنماذج من (حكم) و (أمثال) و أبيات و مقطوعات شعرية. غير أن الكلمات (العامية الجزائرية) أساءت كثيرا، في مواقع عديدة للصياغة الأدبية؛ فهي ترد على قلم الكاتب

في السياق؛ في غفلة منه عن طبيعتها العامية، فتفلت لتندسّ بين الكلمات محدثة ارتباكا للقارئ الغريب عنها، و عن وظيفتها، خصوصا حين يَفصلها عن هذا القارئ فاصل زماني كبير، أو فاصل مكاني شاسع، كما أنّ موقع (المقامة) تنوع بين (الثبات) كالحال في (المقامة الصقلية) و بين التبدل، كالحال في (المقامة المسجدية).

و لقد اختلفت لغة (المقامات) في كثير من المواقع، بين لغة معجمية جافة، و لغة أدبية ذات طلاوة، لكن في الحالتين: كستها روح الفكاهة، و التصوير (الكاريكاتوري) الساخر، و هو مُولَع بذلك إلى أبعد الحدود، حتى بدا أن ذلك غايته، ممّا انتهى به إلى ضرب من (الإحماض) بل الفحش، في عبارات و كلمات، و صور، من بينها ما ورد في الصفحتين (الثامنة و التسعين) و (المئتين و عشرين) غير أن الجدية و الرزانة كانت أوضح في (المقامة البغدادية) ربّما لجلال اللقاء و ظروفه، و طبيعة التّطلعات في الموقف.

و هنا يحسن أن نتسائل ماذا أضاف (الوهراني) لهذا الفن؟ إن الإضافة الأساسية : أنها أول لَبِنَة في هذا النوع الأدبي، في الأدب الجزائري، و الرّجل إن جاء بعد علَمين في هذا الفنّ بالمشرق العربي. (الهمذاني) و (الحريري) فقد تميّز بعمله، في شخوصه و أحداثه، و حتّى أسلوبه، بلغته المختلفة المستويات، بمفرداتها نفسها. من هنا كان إبداع (ابن محرز الوهراني) جديرا بالتقدير، لا لأنّه عكس جانبا من حياة عصره فقط، بل لأنّه أسهم في إعطاء دفع متميّز للأسلوب في الأدب العربي، و (الدكتور عبد العزيز الأهواني) لم يخطئ إذن حين قال : إنّنا « لا نكاد نجد في النثر العربي القديم نصوصا فيها ما في كتابات الوهراني من حيوية و ذكاء، و لمحات تعبّر عن شخصية الكاتب، و تصور في دقّة و بلاغة بعض جوانب الحياة الفكرية و الاجتماعية، في عصر من عصور التحوّل في المجتمع العربي» و هو القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) تاريخ ميلاد فن (المقامة) في

الأدب الجزائري، فماذا بعد (الوهراني) من إبداع في هذا النوع الأدبي ؟

لقد كانت (مقامات ابن محرز الوهراني) في القرن السادس الهجري تجربةً أولى أصيلة بهذا الفنّ في الأدب الجزائري، وقفت في مستوى التجارب الأولى بالمشرق العربي، لكنّها تميّزت بنكهتها الخاصة، و تجاوزها الرتابة : تنويعا في الشخصيات، من دون البقاء في أسر النّمطية اللفظية و الفكرية. فماذا بعد تجربة (الوهراني)؟

إن النصوص التي انتهت إلينا في فن (المقامة) بعد (الوهراني) حتى الآن تعلن فراغا كبيرا خلال أكثر من أربعة قرون، أي حتى سنة (1106هـ / 1694م) و هو التاريخ الذي كتب فيه (أحمد البوني) مقامته: « أعلام الأحبار بغرائب الوقائع والأخبار» [19] .

---

[19] و هي مقامة صغيرة. حققها، و قدم لها الأستاذ الدكتور: أبو القاسم سعد الله. و نشرها في مجلة (الثقافة) الجزائرية. العدد:58، 1400هـ/1980م.

فتكاد تكون النموذج الوحيد الأصيل -حتى الآن- خلال القرن الثاني عشر الهجري (السابع عشر الميلادي).

و اسم المؤلف كاملا هو (أحمد بن قاسم بن حمد ساسي البوني) المولود بمدينة (عنابة) سنة (1063هـ/1652م) من الأسر العلمية و الثقافية في المدينة، حيث درس، كما درس في (تونس) و (مصر) و (الحجاز) وله مؤلفات عديدة، طرقي، ذو مكانة اجتماعية مرموقة في منطقته، حج و تبادل الرسائل مع معاصريه، من المثقفين و السياسيين، حتى توفي بعنابة نفسها سنة (1139هـ/ 1726م) تاركا عدة آثار، معظمها لا يزال مجهولا، و منها رحلة حجازية، أما مقامته فقد سهر على نشرها : الدكتور أبو القاسم سعد الله، و يتعلق موضوعها بأمر وساطة لدى (باشا الجزائر) لإلغاء آثار وشاية، سعى بها بعض من أشباه علماء، من خصوم لأحمد البوني، و صديق له كان مفتيا في (عنابة) « سعوا ضدهما لدى الباشا فصدق هذه الوشاية، و عزل المفتي و أساء

إلى البوني» [20] الذي كبر عليه احتمال الوشاية الكاذبة و الإساءة البالغة، فكتب مقامته تلك إلى صديق له يدعى الشيخ (مصطفى العنابي) انتقل إلى مدينة (الجزائر) حيث يتولى التدريس؛ و فيها يشكو آثار الوشاية عليه و على صديقه المفتي المعزول، لحسد تمكن من نفوس بليدة أكلتها الضغائن الرخيصة الدنيئة « فكيد العلماء ضد بعضهم و الحسد و الغيرة و الوشاية و نحوها من مظاهر الضعف الإنساني، كانت و ما تزال شائعة، و قد ذهب ضحيتها الأبرياء و ارتفع بسببها الأغبياء » .

يفتتح (العنابي) مقامته بالبسملة و الصلعمة، مسندا الرواية إلى اسمه، مثنيا بالحمدلة، و شكل براعة الاستهلال: « الحمد لله الذي جعل المصائب وسائل لمغفرة الذنوب، و النوائب فضائل لذي الأقدار و الخطوب، و سلط سبحانه و تعالى على الأشراف أرباب الزور و الفجور و الإسراف ... و بعد أيها العلماء الفضلاء، النبلاء الكملاء ... تأملوا ما يلقى إليكم من الخبر الغريب، و ما

---

[20] مقدمة. سعد الله. المصدر السابق. ص : 36.

يرسل الله تعالى على كل عاقل أريب، فقد ارتفعت الأشرار... و انقلبت الأعيان، و فشا في الناس الزور و البهتان»[21] ، ثم يباشر موضوعه بحيثياته ونتائجه، مراعيا السجع في صياغته، و خفة العبارة و قصرها، قائلا: « بينما نحن في عيش ظله و ريف، و في أهنإ لذة بقراءة العلم الشريف، و في صفاء من الأكدار، و هناء من صروف الأقدار: إذ سعى في تشتيت أحوالنا و قلوبنا، و هتك أستارنا وعيوبنا، من لا يخاف الله و لا يتقيه، فرمى كل صالح و فقيه، بما هو لاقيه...و نسب لبعضنا من الكبائر و الفضائح ما تصم له الآذان، و تجمد له القرائح...حتى أوصله لمسامع السلطان، فلم نشعر إلا و مكاتب واردة علينا من جانب الأمير بعزل صديقنا الشهير من خطة الفتوى، مع أنه ذو علم و تقوى، و انتهك جنابنا و ضاقت رحابنا، و طالت يد الصائلين علينا، و وصلت شوكتهم إلينا، و مزقوا منا الأعراض، و لم يزالوا في إدبار عن الحق و إعراض » .

---

(21) **الثقافة، الجزائر،** ع : 58.

لا يجـد الكاتـب مخـرجا مـن معاناته النفسية إلاّ في كنف الضـراعة إلـى الله، معرضـا بهؤلاء من (أشباه) العلماء الذي وصفهم بزمرة « أوباش أراذل، من كل مغتاب و نمام، أو مرتاب أو تمـتام» داعيا عليهم بالخراب و الاندثار مذمومين مدحورين، قـائلا بلفظـه نصـا « فضراعة إليك، اللهم، في تخييب آمالهم، و إفسـاد آرابهم وأعمالهم، و تعجيل خرابهم، و تفريق أحزابهم، و قطع آثارهم، و خراب ديارهم و نفيهم من البلاد، لأنهم أرباب بغي و فساد» في ضراعته هذه تشتد به الحيرة بحثا عن مخرج، فيبدع له شخصية متخيلة أطلق عليها اسم (منادي السرور) تحمل معها البشرى، لرفع السوء، و دفع الشرور، فاستبشر الراوي خيرا طالـبا الإيضاح، كما يعبر الكاتب في الفقرات الآتية التي نقتطع مـنها ما يلي: « فقلنا : يا هذا اصدقنا في هذه البشارة، فإنك لدينا من أهل الصدق و الإشارة، و روايتك صحيحة و قريحتك بإبراز عـرائس المعانـي غير شحيحة ». « فأجابنا : عليكم بمن العزم سـجيته و الحـزم سـليقته و طويـته، و العلـم رداؤه و الحلم

لواؤه، والأناة شأنه، و الكرم إيوانه، و الخوض في العلوم النافعة طـبعه و ديدنـه...العلامة السرسور سيدي مصطفى العنابي ثم الجزيـري...فإنه كشاف كربات، فعال قربات، يأخذ بيد الغريب، البعيد منه و القريب، صاحب جناب فسيح و لسان فصيح » .

هكذا يعلن (أحمد البوني) طلب الوساطة من (مصطفى العنابي) بأسلوب أدبي اتخذ شكل المقامة، مجردا من شخصية وهمية الفعل المحـرض الواثـق فـي إمكانات صاحب الوساطة، لأنه ذو علم كـامل، و أخـلاق عالـية، لا يتردد في فعل كل خير، ملحا في اقتراحه التحريضي المشجع، المطمئن بقوله: « لو رفعتم إليه هذه الحاجـة، لقضـاها لكـم بلا توقف و لا لجاجة، لأنه فاتح أبواب المعـروف، و بذلك من الأنام الموصوف، لا تأخذه في الله لومة لائـم، و أيامه في الناس أعياد و ولائم » ، و لا يلبث (الراوي) حـتى يعلن اقتناعه بصدق صاحبه، داعيا له بالخير في عبارات مسجوعة، نوّع في موسيقاها، و في فواصلها، و مقاطعها، و هو يخاطـب (المـنادي) نصحا و بشرا : « قلنا له : يا هذا، لوائح

الصـــدق ظاهرة على صفحات أخبارك، و روائح الرجا و الظفر استنشـــقناها من آثارك، كأنك بشير يعقوب، أو كشف الضر عن أيـــوب، لله درك ؟ ما أبلغ ما جئت به، لدى كل عاقل منتبه، فقد شـــنفت أطماعـــنا و شـــرفت أســـماعنا، و علمـــنا علم ضرورة و يقين، إنك من الناصحين المتقين، لأنك أتيت الأمور من أبوابها، و كســـيت مـــن الـــتقوى أجمـــل أثوابها، زكى الله تعالى أقوالك و أفعـــالك، و لا جعلها في البرزخ أفعى لك، فهنيئا لك بما حصل لك من جميل الآثار» .

لقد اكتست مقامة (أحمد البوني) بطابع ديني، في أسلوب أدبي رشـــيق عموما و اتخذت لها شكلا إخوانيا، فإن كان الراوي هو الكاتـــب نفســـه، فـــإن الطرف الثاني بقي صوتا متخيلا، و كان المقصـــود بالخطـــاب الشيخ (مصطفى العنابي) الذي كان المعني بمضـــمون المقامة كلها، التي صبت في شكل أدبي، بروح دينية إنسانية إخوانية.

و قـــد بـــدا الموضوع في عين المؤلف على جانب كبير من الخطـــورة، كـــيف لا و قد كبرت الوضاعة في صفوف العلماء، فبات أشباههم من الوصوليين و الانتهازيين، و القردة والخفافيش سادة الحلبة، مسموعي القول و الرأي، يؤخذ إفكهم و بهتانهم على علاته كأنه الحق المبين، و هو الأمر الغريب في الزمن العجيب، تكبر حوله علامة الاستفهام حين يستهدف أخيار الناس، فيلفق لهم الأكاذيـــب و الأباطـــيل مما لا يصدقه العقل، من هنا جاء عنوان (المقامـــة) « غرائب الوقائع» في الجزء الثاني. أما الجزء الأول منها أي « إعلام الأحبار» فالمقصود به (الإخبار) الموجه للشيخ (مصطفى العنابي) الذي وصف بالحبر، و (الحبر) هو (العلامة) ذو الصلاح و التقوى، و جمعه أحبار، فهول الوشاية التي قام بها الأنـــذال، هزت الكاتب فهرع لصاحبه متخذا شكل المقامة للتعبير عن انفعالاته؛ فلم يلتزم شكلها التقليدي بقدر ما استوحاه مع قصد تام للشكل كما عكس ذلم تعبيره في نهايتها بقوله « انتهت المقامة المسماة بإعلام الأحبار بغرائب الوقائع والأخبار » .

وهـــنا ينبغـــي أن نلاحــظ أن الكاتـــب أنهى (مقامته) بإعلان تواضعه، متبوعا بذكر التاريخ الذي كتبت فيه المقامة في صيغتها النهائـــية، و هـــو تقلـــيد خارج شكل المقامات، يضاف إلى ذلك (الحمدلـــة) التـــي لـــم ترد مع (البسملة) و (الصلعمة) في مطلع (المقامة) و يحسن أن نورد ذلك زيادة في الإيضاح لتكتمل الفكرة، انطلاقـــا من خطاب المؤلف للقارئ، و هو يرجوه « أن ينظرها بعيـــن الرضى، و التجاوز و الإغضاء، فإن بضاعة صاحبها في العلـــم مزجاة، و إنشاءاته منحطة في أسفل الدرجات» ليقول بعد ذلك مباشرة:« و قد فرغ منها منقحها الفقير المذكور، ضاعف الله لـــه الأجـــور، و قاه كل الشرور، و أخذ سبحانه بيده، و بلغه في الداريـــن إلـــى مقصـــده : في أوساط شعبان، الذي اشتهر فضله و بـــان، عام ستة و مائة و ألف من الهجرة النبوية، على مشرقها أفضل صلاة و أزكى تحية. و الحمد لله رب العالمين، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا و يرضى ».

مهما يكن من شيء فإن مقامة« إعلام الأحبار بغرائب الوقائع و الأخـــبار» للبوني صورة من الصور التي تعطي انطباعا عن الحـــيوية التـــي لـــم تمـــت نهائيا في النثر الجزائري أثناء العهد العثمانـــي، فأبقى الحس الإنساني المرهف على طلاوة الصورة، ورشـــاقة الكلمة، كما اطرد في ذلك فن المقامة كنوع أدبي و إن بشكل محدود، في ظروف أدبية تتسم بالركود العام، و التردد في بعض الأنواع، في مقدمتها المقامة.

فماذا بعد (البوني) في هذا القرن بالذات ؟ و في هذا النوع ؟ في القرن الثاني عشر الهجري نفسه ؟ لقد جاءت بعده عدة نماذج لكاتبيـــن اثنيـــن، هما (ابن ميمون) و (ابن حمادوش) كتب الأول نماذجــه ســنة (1119هـــ/ 1708م) و كتب الثاني عمله سنة (1156هـــ/ 1743م). و (محمد بن ميمون الزواوي) من أسرة ثقافــة و علــم، كان معاصرا لداي (الجزائر) و هو (الداي محمد بكــداش) الــذي خلف (الداي حسين خوجة الشريف) حين عزله ســنة (1118هـــ/ 1707م) فجهز (بكداش) جيشا بقيادة صهره

(أوزن حسن) لاسترداد مدينة (وهران) من أيدي (الإسبان) الذين كـــان قـــد مضى عليهم فيها (مئتان و خمسون سنة) و آزر (باي الغرب) في مدينة (معسكر) القائد (أوزن حسن) في الحملة، حيث تـــم لهما فتح (وهران) في يوم جمعة (1119/10/26هـــ - 20/ 1708/01م) فكانـــت هذه المناسبة التاريخية الوطنية الدافع للشيخ (ابـــن مـــيمون) فـــي كتابة مقاماته التي تضمنها كتابه « التحفة المرضـــية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية »[22]. و هـــو العمـــل الـــذي قام بتحقيقه الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الكـــريم. حـــرص (ابـــن ميمون) على عرض فضائل (بكداش) و خصـــاله الوطنـــية، لما توفر عليه من حنكة و شجاعة و حس وطنـــي، كـــان في مقدوره أن يذهب به بعيدا لو أهملته العصابة العســـكرية حولـــه (الإنكشـــارية) التـــي تذمـــرت من تأخر في

---

[22] ابن ميمون، محمد الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم و تحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم، سلسلة ذخائر المغربي العربي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981م.

دفـــع رواتـــبها الخيالية، فاغتالته في (مارس 1122هـ/1710م) و نصبت (دالي إبراهيم) الذي أعدم أيضا بطل الفتح في (وهران) السـيد (أوزن حسـن). و الخصـال التـي توفر عليها (بكداش) و (أوزن حسـن) مكنـت لحـب الأول خصوصا في نفس (ابن مـيمون) الذي ركز في كتابه « على سيرته إبان توليته و حكمه، كما خصص جل الكتاب لقصة الفتح الأول لمدينة (وهران)»[23].

فـي مقدمـة (المؤلـف) لمقاماته الست عشرة تصريح بهدفه، و وعـي تام بأنه يكتب مقامات تتضمن سيرة (بكداش) و تراعي الإطـار الأدبـي، بمـا فيه : من أناقة لغوية، و أسلوب بديعي، و أخبار طريفة، فيقول بعد حيثيات تقليدية في مقدمته: إنني « لما رأيـت مولانـا الإمام الذي أنام في ظل الأمان جميع الأنام، عالم الأمـراء، و أمـير العلماء، مولانا فخر الدولة العثمانية، و ناشر لـواء العـدل على جميع البرية، أبو النصر السيد محمد بكداش، أنارت أنواره جميع البلدان، و التف ملكه بالإحسان، التفاف الساق

[23] المصدر السابق، ص : 83.

بالساق، أردت أن أخدم مجلسه العالي بزف هذا الكتاب إليه، المحتوي على ما نشر من السيرة المحمدية عليه، و أشرف محاسنه بمثوله بين يديه؛ فوسمته باسمه، و كسوته نور وسمه، و أطلعت شمس النبل بأفقها، و أتيت ببضاعة الفضل إلى منفقها، و لم آل جهدا في تنقيحه و تأليفه، من صادق الخبر و صحيحه، على ما تجده فيه من ألفاظ لغوية، و أنواع بديعية، و أخبار مستلمحة و كناية مستلمحة...محتويا على مقامات ست عشرة، كأنها حكت قلائد العقيان و درره، و الله أسأل أن يتلقاه بالقبول...على أن أبناء هذا العصر ابتلوا بالحسد، و يطلقون ألسنتهم في كل مرصد، و من كانت له ملكة فليصنف، و إلاّ فلينصف » .

إن هذه الفقرة من (المقدمة) تعلن الجوهر من (مقامات ابن ميمون) و هو يعتبرها مقامة حقا، أي كلاما يدور في مجلس يجتمع فيه الناس، و هم بين جالس و قائم، ينصتون لحديث يُروى، فيه طلاوة أسلوبية، و طرافة لغوية، و أخبار مثيرة، هي

هنا أخبار (محمد بكداش) نفسه، ليستمتع بها هو ذاته، يلتذ بأمجاده فيها، و خصاله، و انتصاراته، ابتداء من (المقامة الأولى) التي يعود فيها الكاتب بنسب (بكداش) إلى أصول عربية، و حلوله بمدينة (عنابة) و إقباله على العلم ، و تحمله المسؤولية في النظام العثماني كما تصوره (المقامة الثانية) « فكان سنة أربع ومئة و ألف (1693م) صعد المنبر، و وعظ الناس فيه و حذر، يقذف لسانه لؤلؤه المكنون، و يصرف من بدائعه الأنواع و الفنون؛ فلا يجارى فيه مضمار إحسان، و لا يبارى في بلاغة و براعة لسان ». فهو إذن خطيب بليغ و سياسي محنك -كما تصوره المقامة الثالثة- شخصية تترفع عن الوصول إلى المناصب العليا على جماحم الآخرين، من دون أن يتأخر لحظة عن تلبية نداء الواجب سنة (1112هـ/1700م)« إن لله قضايا واقعة بالعدل، و عطايا جامعة للفضل، أجراها على يد من هو للكمال أهل» فيصف الكاتب وصوله عن جدارة إلى منصب رئيس ديوان الإنشاء في (المقامة الرابعة) أو كاتب عام للدولة، سنة (1117

هـــ/ 1705م) « وهــي حالة تدل على أناقته في الفخر، دلالة النســيم على الزهر، و الشاطئ على النهر » فيورد الكاتب هنا: قصــيدتين قيلــتا في مدحه، و هو الذي بات ممجدا « و ما زالت الــناس تلقاه بالود على البعد، و تقدمه في الأعيان، و إن لم تره بالعيان».

يتعرض (ابن ميمون) في مقامته الخامسة إلى سوء العلاقة بين (بكــداش) و (الداي حسين خوجة) بفعل (الوشاة) فترتب عن ذلك نفيه إلى (طرابلس) سنة (1117هــ/1705م)، ثم عودته سراً مع (جماعــته) بمســاعدة (باي تونس) استعدادا لعزل (الداي حسين) و اســتلام السلطة، و حين دخل ضواحي (الجزائر) مع جماعته « فشــا خبرهم في البلاد، فأعمى الله و أصم أهل الفساد...حتى أشــار صــاحب الــرأي السديد بالدخول صباحا من باب الجديد، فوقعت الواقعة، و ما أدراك ما الواقعة» بنص المقامة في نهايتها.

هذه (الواقعة) هي التي رفعت (بكداش) إلى سدة الحكم، و نفت (حسين داي) حتى اضطرته (أمواج البحر) إلى قرية (دلس) فلقي

ربـــه في إحدى قرى القبائل، فوصفه الكاتب بمثير الفتن « و من أوقد نارا صلي بحرّها، و من أسال دماء الفتنة غرق في بحرها » و هــذا في (المقامة السادسة) التي تؤرخ لاستلام (محمد بكداش) الســلطة، في (19 ذي القعدة 1118هـ/1707م) فيقول الكاتب : « و اســتفتح الملك يوم الجمعة، و الناس ينتظرون مجتمعه، فلما طلــع علــيهم بدره بين أنجمه، تأسفوا لقلة وفده، و لم يعلموا أنه اعــتمد علــى قوــله تعالى: "إن ينصركم الله فلا غالب لكم و إن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده" و ما أحقه بقول القائل من الشعراء الأوائل (السموأل):

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز، وجار الأكثرين ذليل

فلمــا رأيــت ما أخذهم من الذهول، و سمعت شهادتهم بأن وصفه تتحير فيه العقول، أنشدت متمثلا:

الله أكبر أي شيء حـزتـه حتى استكان لأمرك العظماء

شهدت لك الأعداء أنك مـاجد والحق ما شهدت به الأعداء

و بويع له بالخلافة، و ما أعظمها خلافة، و أبو الفتح صهره الأمــير حســن يفعــل بين يديه كل حسن، من الذب عنه بسيفه و لسانه، و الفتك بمن يروم الخروج عن سلطانه» [24].

يخصــص الكاتــب المقامــة السابعة من مقاماته (البكداشية) للحديــث عن « اسمه و أهل مملكته» فهو « أمير المؤمنين محمد بن علي بن محمد الشريف، الحسني، النكداني، ملك رفع للأقمار لواء، و ألقى على شمس النهار بهجة و ضياء » كما يتحدث عن صــفاته الجســمية و المعنوية، و أبنائه، و أصهاره، منهم « أبو الفــتح حســن...طويل النجاد، قوي العزم لا يرده عن أمره راد، أكرم الناس عطاء، و أولاهم حياء » فهو أحد قواده وزرائه، إلى جانب كتّابه و قضاته الذين أسهب الكاتب أيضا في صفاتهم، لعل أهمهم « قاضي العسكر المنصور، حامل لواء الشريعة المنشور: أبــو حفــص عمربــن الفقيه...ضربت الأمثال بنباهته، وسارت الرفاق بظرافته...فإذا نثر و سجع، و ردد الفقر و رجع، و كتب

---

[24] المصدر نفسه، ص : 140.

و نكـــت، و أجـــاب و بكـــت، و أمأ و أشار...و أوجز وحرر، و أصل و قرر ، و أعاد أحرز ذوق ابن أبي الخصال، وشهر في مـــيدان البالغة النصل » فبعد أن وصف هذا الفقيه بصفات جامعة مـــنها إحرازه (ذوق ابن أبي الخصال) الغافقي الأندلسي، الوزير الشـــاعر، المولـــود ســـنة (465هـــــ/ 1073م) يصل إلى سبقه و قصور الغير دون صفاته : فهو الذي « تقاصرت عنه اليواقيت و الجواهر، و سلمت له في الحسن الحدائق اليانعة و الأزاهر» ثم يصـــل إلـــى ما قيل من شعر في تهنئة (محمد بكداش) باعتلائه كرســـي الحكم، فكان ذلك موضوع (المقامة الثامنة) و قد امتدت علـــى مساحة مئة صفحة، و صفحة زيادة عن المئة. أما المقامة التاسعة، فللحديث عن« الخروج لوهران بقصد غزو الكفرة، و ما حـــدث بعـــده من مقاتلة اللئام الفجرة» و هي الحملة التي أعدها (بكـــداش) لاســـترداد وهـــران من (الإسبان) الذين أذلوا مسلمين و نصـــروا آخريـــن مـــدة (خمسين و مئتي سنة):« فكم من عالم أســـروا، و كم من شريف نصروا، و كم من عروب أتراب تولغ

فيهن الكلاب » و أسند الأمر لصهره (حسن أوزن): « نصره الله و أيـــده، و خلـــد ملكـــه و أيده...ثم ارتحل من الجزائر بالعسكر المنصـــور، و رياح النصر تضرب اللواء المنشور» فكان حصار (بـــرج العـــيون) موضوع (المقامة العاشرة) حيث « حاصر هذا الحصـــن حامـــي حمـــى الدين و عاضده، و قاطع ضر المعتدين و حاصـــده، الـــذي هـــد بعزمه الجبال الشوامخ، و اجتث بحزمه الأصـــول الرواسخ، الأمين المؤتمن : السيد (أوزن حسن) و ذلك فـــي ليلة النصف، من شهر ربيع الأول...سنة تسع عشرة و مئة و ألف»... تلاه (حصن الجبل) موضوع (المقامة الحادية عشرة) أمـــا (الثانـــية عشـــرة) فعن حصار (حصن بن زهوة) أو (برج اليهودي) حيث أمر القائد (أوزن حسن) « بحفر اللغم » كي يزول عـــن المســـلمين « الحزن و الغم» ليصل إلى الفتح الأول لمدينة وهـــران فيصـــفها (ابن ميمون) هكذا :« لا شك أنها مدينة بلقاء الشـــهرة، و غـــاب البســـالة و منبـــت الشوكة، و عقاب القواعد المغتصبة للمسلمين، و محطة طائفة العرب العامريين، الخصيبة

النـبات، المسـتبحرة المـاء الجنات...مدد الوفود و الكروم التي استثمرها الروم...لا يخفي أنها كانت شجى في حلق الدين، وغذى في أعين المسلمين...» و هي في أيدي الكفرة المجرمين، حتى تم فتحها « في اليوم الأغر المحجل من شوال سنة تسع عشرة و مئة و ألـف:1119هـ » (20جانفي1708م) ففجرت المناسبة قرائح الكـتاب و الشـعراء، ثم تهاوى: برجا (الأحمر) و (الجديد) كما تذكرهما المقامة الرابعة عشر، بينما كانت المقامة الخامسة عشرة عـن حصـار حصـن المرسى و كيف افتتحه المسلمون وزال باختـتامه الأسـى: فقـال الكاتب « و لما فر من المدينة الكفرة، و زعمـوا أنهم ناؤوا عن الذل و المحقرة، و أنهم إذا تفاقم عليهم الأمـر، يفـرون في البحر، فذهبت السفن من عندنا تحاصرهم، و المسـلمون فـي البر تطاردهم...فكانت هذه فتوحات منظومة العقـود، معقودة النظام». هزت هذه الانتصارات الشعراء بشكل خـاص، فـأورد (ابن ميمون) نماذج لهم تشيد بالنصر، و يختم مقاماته بالسادسة عشرة، ليصور فيها عودة (أوزن حسن) معززا

بالنصــر، مصحوبا بفخر عن استبسال (جيشه) في عمله الجهادي الــذي افــتك المديــنة من قوى الكفر و البغي، فينتقل إليها (باي الغــرب) : (مصــطفى بوشــلاغم) و يتخذها مركز السلطة في (الغــرب الجزائــري) و يبقى الكاتب ملتزما السجع، منوعا في مقاطعه، و جمله حريصا على التمكين لقيم الجهاد و النصر، قائلا مــنذ مطلع (المقامة) : « شرف باذخ، و مجد شامخ، عقد النجوم ذوائبه، و أوخز في مفرق النسر ركائبه استفتح و هران، و انبلج صــبح النصر و بان، و قفل وألوية النصر عليه خافقة، و أسواق الظهور نافقة، و ألسنة الشكر والحمد ناطقة، و الظنون في فضله الصادق صادقه، و الكفر قد ذل و استكان، و دخل عزه في خبر كــان، و عز الإسلام قد ظهر و استبان، و رسا كما رسا رضوى و أبــان » و قد ورد في آخر هذه المقامة إعلان تاريخ النسخ في النسخة التي اعتمدها المحقق (د. محمد بن عبد الكريم) « أواخر جمــادى الأخــرى، عــام إحــدى و عشرين و مئة و ألف من الهجرة ».

إن مقامات (ابن ميمون) إذن بهذا الشكل إطار أدبي زاه لحكم (الـداي محمد بن بكداش) و بطولة قائده و صهره (حسن أوزن) و هي في النهاية صورة للنضال الوطني الجزائري.

إن مـن ممـيزات مقامـات (ابـن ميمون) أنها تعالج أحداثا تاريخية، خلال الفترة : (1118-1119هـ/1707-1708م) كان محورهـا (محمـد بكـداش) و وصوله إلى الحكم، و استرجاع (وهـران) مـن أيدي الإسبان، فكتبت (المقامات) لأول مرة سنة (1120هـ/ 1708م) و تكرر النقل عن نسخة المؤلف بعد ذلك، فـي تواريخ، بعضها في سنة (1121هـ/ 1710م) و من خلال هـذه المعالجـة كان الهدف واضحا هو إجلال شخصية (بكداش) الـذي غمـره المؤلـف بشـتى الصفات المادية و المعنوية، نثر للمؤلـف، و شعر له، و لسواه من المعاصرين له، في (الجزائر) فـالأحداث التاريخـية واقعـية، لا ظـل لخـيال فيها، كما أن الشخصيات هي كذلك شخصيات معروفة، فما الذي يجعل نسبتها لفن المقامة أمرا ممكنا ؟

لقد أعلن (الكاتب) ذلك صراحة، فأثبت المقامات عددا، مرقمة باسم (مقامة) فهو إذن على وعي تام بنوع (المقامة) فاستمد جوها الـــذي يذيع بطولة، و يقصها، ليجعل الكاتب من ذلك أداة للتسلية و رفــع المعنويات، و الاعتزاز بقيم الإباء و النضال، و النصر، و الاستشــــهاد، مــع الإشـــادة بالأريحية العربية التي تأبى الضيم و تــنهض للدفـــاع عـــن حياض المسلمين، فكان (محمد بكداش) و صهره القائد (حسن أوزن) مثالا في ذلك استحقا فيضا من الثناء في حشد من النثر و الشعر في هذه المقامات، التي صار (بكداش) نفســه يقــرأها باعتزاز، لتنسيه مشقة المعاناة اليومية في تسيير دواليــب الحكــم، التي لم تحل رغم وفائه وإخلاصه بينه و بين الانتقام منه، و من صهره ذاته.

فهي حكايات حاولت أن تستمد الإطار في (المقامات) تتلى في محفــل يــتطلع لا إلـــى (مغامرات) تسول و لصوصية، بل إلى الأعمـــال الوطنية النبيلة الفذة، ينجزها ذوو إرادات صادقة، تثأر للوطن و الدين و الأمة، قامت هذه المقامات على عنصر الحكاية،

و السرد على مسامع في مجلس، به قعود، أو يمكن أن يكون فيهم الجالس و القائم.

تتبـــنى هذه النماذج شكل المقامة اللغوي، و الأسلوبي عموما، لكنها تبقى في جميع الحالات صورة ذات وجهين متألقين للوطنية الجزائرية الفياضة بعمق إسلامي، عربي، حتى أن (بكداش) نفسه لم يقنع بنسبه الإسلامي، فأصر على أن يكون في الوقت ذاته نسبا عربـــيا، و من سمات هذه الوطنية: الحمية الجهادية العسكرية من جهة، و تهليل الشعراء للنصر الجزائري على الاحتلال الإسباني، أمـــا الوجه الثاني، فإن هذه النماذج تبقى إحدى الصور المشرقة عـــن حركـــية الأدب الجزائـــري (شـــعرا و نثرا) في تفاعله مع الأحـــداث، و حـــيوية التعبـــير عنها بحرارة، و قوة هذا التعبير، و طلاوتـــه، ممـــا يجعلـــه أدبـــا مقاوما للإحباط، صامدا لعوامل الانحطـــاط و الـــتخلف، غير مستسلم للركاكة الفكرية و اللغوية والأدبـــية التـــي كانـــت تجتاح مختلف مناحي الحياة، فتبقى تلك ضعيفة ركيكة لتعاملها مع قضايا (ميتة) أو تصوغها أقلام هزيلة،

أو لا تحـــركها انفعالات صادقة جديرة بالإبداع بالكلمة و الجملة، و الصورة، فضلا عن الموقف و الفكرة و الرأي.

فمـــاذا بعد (ابن ميمون) في فن المقامة في القرن الثاني عشر الهجـــري (الثامـــن عشر الميلادي) ؟ أن أول نص في (المقامة) خلال القرن (الثاني عشر الهجري) أي(الثامن عشر) الميلادي بعد (ابن ميمون) حتى الآن حسب علمنا، هو ما كتبه (عبد الرزاق بن حمـــادوش الجزائـــري) ضـــمن رحلـــته المعروفة : (رحلة ابن حمـــادوش الجزائري) المسماة « لسان المقال في النبإ عن النسب و الحسب و الحال» [25].

كتـــب (ابن حمادوش) ثلاث مقامات أثناء رحلته في (المغرب الأقصـــى) التـــي ســـافر إلـــيها لغرض التجارة، غير أن المثقف الأصـــيل مهما كانت مآربه التجارية كثيفة أو خفيفة، يبقى الحس الإنســـاني ماسكا بتلابيبه، و يزداد ذلك دقة حين يكون ذا موهبة

[25] ابـن حمـادوش، عـبد الـرزاق، رحلـة ابـن حمـادوش الجزائـري، تقـديم و تحقـيق و تعليـق الدكـتور أبـو القاسـم سعـد الله، الشـركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1983م.

أدبـــية، و هو ما يصدق على (ابن حمادوش) نفسه، فكتب رحلته المذكورة، و تضمنت ثلاث مقامات، كما تضمنت أخباره العديدة، و مـــنها صلاته بمعاصريه، من بينهم (ابن ميمون) السابق الذكر نفسه، الذي دعاه إلى بيته، ليطرح عليه لغزا في قصيدة مطلعها :

يا سيدا و له في العلم منزلة   لما يحز مثلها في عصره أحد [26]

و (ابـــن حمـــادوش) كان أثناء رحلته (في المغرب) يقرأ وينسخ، مصـــنفات و شـــروحا فقهـــية، و لغويـــة، و أدبية، من بين ذلك (مقامـــات الحريـــري) حيـــث يذكر في الصفحة الثمانين أنه بدأ قراءتها في المغرب، و أكملها في الجزائر بعد عودته، و هذا نص عـــبارته « فـــي يوم الثلاثاء ختمت المقامات الحريرية التي كنت ابـــتدأتها في تطوان في بيتي، قرأت هناك سبع مقامات، و أكملت الباقي هنا» .

---

[26] المصدر السابق، ص : 162.

كتب المؤلف مقاماته الثلاث، بوحي من هذا النوع الأدبي لدى الحريـــري، و تبقى بالنسبة له قليلة أمام إنتاجه الآخر، و المؤلف مـــن مواليـــد ســـنة (1120هــ/1695م) و الرحلة التي تضمنت مقاماتـــه كتبـــت بيـــن سنوات : (1156-1160هــ / 1743-1747م). فمـــاذا يقـــول (ابـــن حمـــادوش) في مقاماته الثلاث ؟ و كيف ؟

فـــي المقامة الأولى يتحدث عن انتقاله في (المغرب) مع بعض أصـــحابه، مـــن (تطـــوان) إلى (مكناس) بلغة حاكى فيها سجع (الحريـــري) و لغـــته التي لم يرق إليها، و كان أحسن مقطع في مطلعهـــا، حيـــث يقـــول: « الحمد لله طحى بي ضيق الأسباب، و هـــوى الاكتســـاب، إلى أن خطرت من شدة الإياس، إلى بلاد الملك فاس، أخوض الغمار لأجتني الثمار، و أقتحم الأخطار لكي أدرك الأوطار، و كنت لفقت من أفواه العلماء و وصايا الحكماء : أن الخطـــر غـــرور، و أن المسافر مبرور، فشددت منطقتي لكي أدفـــع أزمتـــي، و رافقـــت اثنين من التجار، كأنهما من الأبرار،

فاكتريـــنا مـــن حمـــار، كأنه أراد ابتدائي بالعار، فرددت عاره، و خـــبأت ناره، بما فيه أوطاره، حتى يحمد جواره» [27]. و هو يكتـــب ذلك بوعي تام بالإطار الذي يكتب فيه، أي نوع المقامة، كمـــا نلاحظ في تقديمه للمقامة الثانية حين قال: « في يوم الأحد ألفت المقامة» (الهركلية) أي الهرجية، نسبة إلى الهرج و الصخب الســـوقي، حيث انتهى إلى (خان) هو موطن للرذيلة، يكون سببا للصـــخب و الضـــجيج، و فحش القول، يقول الكاتب: « حدا بي حادي الرحلة، إلى أن دخلت في بعض أسفاري في هركلة. فنزلت بها في خان، كأنه من أبيات النيران أو كنائس الرهبان، بل لاشك أنه من أبيات العصيان، فلذلك لا يسر به الناظر، و لا ينشرح له الخاطر، فاختصصت منه بحجرة...و كأني وقعت من السماء في حفـــرة، فغلقت بابي لأحفظ حياتي...و هدأت الأصوات و صرنا كالأموات...فلم يوقظني إلا جلبة الصوت و تداعي القينات، التدافع بمنع و هات...و هي تقول : فو الذي سهل علي السفاح و نصبني

(27) المصدر نفسه، ص : 71.

لكل من أراد النّكاح لا برحت إلى الصباح على وجه وقاح، و تدفع المهر بلا سماح. فقلت: بعدا لهذا الجار، و لاشك أنه بئس القرار، و لبئس الخان، و كأنه حان...ثم رجعت إلى هجعتي، و لم أدر من ذاك المجاور لبيتي، و لا ما وقع في تلك اللتا و التي...»

ثم ينهي الكاتب مقامته بقصيدة قصيرة جدا.

أما المقامة الثالثة فقد امتزجت فيها عناصر الشكوى و الضيق، بالسخرية و النزوع إلى الوعظ الديني، و هو يعلن تجربة زواج غير متكافئ عاناه، فهو هنا يستمد تجربته، من دون ضيق بما كان يعانيه في ذلك، فبعد التقديم يقول:« لما أن جرى القضاء المحتوم، و الأمر الملزوم، بأن خف الريش، و أكل الجويش، و مضض العيش،...و كثر الصرف و قصر الطرف، و جفت الإخوان، و قلة الأخدان، و صعبت التجارة و سهلت الخسارة : قرنت بجارة غرة عيشتها مرة، البذرة عندها ذرة...لا يشبعها الجليل، و لا تعبأ بالقليل...مالها ظنون و رغبتها فيها لا يكون...لا تجني إلا ثمرة الخلاف، و لا تركن إلا لعدم

الإســـعاف...بــيد أنها تسر الناظرين، و تصبي السامعين، يصبو إليها الحليم، و يرنو إليها الكريم، أشبهت في شهل العيون يوسف الكريم، و في القد الغصن القويم...هذا و قد جمعت نظافة الإزار، إلـــى الــبعد، فيما أعلم عن العار، كأنها درة مصونة، أو جوهرة مكنونة، و نسأل الله أن يحفظ الباقي من العمر، كما ستر السالف ممـــا مضـــى و مـــر...اخترتها أما لأولادي، و نافقة لمطارفي و تلادي، علما مني أن الدنيا دار كدر، و قليل فيها ما يسر، نظرا لقول الصادق المصدوق : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصـــار و المهاجرة، و لقوله تعالى: و اصبر و ما صبرك إلا بالله، و لا تحزن عليهم، و لا تكن في ضيق مما يمكرون، إن الله مـــع الذيـــن اتقوا و الذين هم محسنون» فالتجربة إنسانية شاكية، يملأها الضيق بالناس و الحياة، و الأسف على ما اعترى العلاقات و القيم، و ما انتهى إليه أمره هو نفسه في ظروف صعبة قاسية، كثيرا ما شكاها (ابن حمادوش) في رحلته نفسها.

و لعل أول سمة تلفت النظر في مقامات (ابن حمادوش) : أنها صبت في قالب حكاية، عن موقف في رحلة، في الأولى والثانية، و عن الخروج منها بخسارة في تجارة ترتبت عنها جفوة أصابته من الخلان و الصاحبة نفسها التي ارتبط تعلقها به: بالمستحيل يقدمه قربانا لودها، و حبها؛ فبطل المقامات إذن هو الكاتب نفسه، صاغها في قالب حكاية، راعى فيها سجعا، مستهدفا التقاط المفردات التي يبدو بعضها نابيا، فتسللت اللغة الدارجة نفسها كمفردات إلى عباراته المختلفة، التي كثيرا ما بدا عليها الثقل، و لم تسلم من الركاكة، و الغموض، و كان يختم مقاماته بشعرله، فيه ضعف كبير: بناء و صورة ، و مضمونا. فهو هنا دون معاصره (ابن ميمون) مسافات: سواء في الأسلوب أو في اللغة، التي تتسم بالمتانة عند (ابن ميمون) والضعف و الترهل لدى (ابن حمادوش) فالشيخ (ابن ميمون) أمتن عبارة، و أرقى أسلوبا، و أجود صورة، و هو أمر طبيعي : لثقافتيهما كليهما، فابن حمادوش: طبيب عشاب، يمارس الفقه، و ابن ميمون مؤرخ أديب

شـــاعر مجيد، في أدبه رشاقة، و قوة، وبعض الخيال في تجارب له، حاولا معا توظيف أسلوب المقامة : حكاية أساسا، و لغة، بفهم خاص بهما لهذا الفن الأدبي، مع حرص شديد لديهما على أسلوب (المقامة) في مراعاة السجع، و غريب اللغة، مع ميل للإشارة عند (ابـــن ميمون) و مباشرة عند (ابن حمادوش) دائما . و عملاهما معا يمكن أن يكون صورة ذات وجهين لمستوى النثر و الشعر في العهـــد العثماني؛ فالأدب ليس كله أدب ضعف وركاكة كما نرى أساســا في نماذج (ابن حمادوش) الشعرية خصوصا، بل فيه قوة وحيوية وطنية، و تعبير عن الواقع كما هو الشأن في معظم نماذج (ابن ميمون) .

نخلص إلى أن النثر الأدبي في الجزائر -خصوصا- في العهد العثماني : له أكثر من مستوى، ففيه المستوى الجيد، و المستوى الضـــعيف، ممـــا يعنـــي القراءة بعمق و يقظة، و الحكم بحذر، و تحفـــظ على هذه الفترة من تاريخنا التي لا تزال في حاجة إلى

البحث التاريخي الأدبي و الدراسة و التقييم الموضوعيين، و هو أمر منوط بهمة الباحثين المختصين الجادين دون سواهم، سلاحهم المنهج العلمي و الرؤية الموضوعية، و الحكم النزيه.


الفصل الثاني
فن المقامة
في الأدب العربي الجزائري
خلال القرنين التاسع عشر
والعشرين

إنّ واقع المقامة و مستواها عموما كنوع أدبي في (الجزائر) لا يكاد يختلف كثيرا في القرن التاسع عشر و العشرين عن القرن الثامن عشر ، لكن من ناحية المادة الأدبية عموما يعتبر القرن التاسع عشر من أفقر الفترات ، في الكتابة الأدبية ، لكن (أدب المقامة) فيه بقي حاضرا رغم فقر القرن ، و ربّما بدت تجربتا (الأمير عبد القادر الجزائري) أوّلا ، و (محمد عبد الرحمن الديسي) ثانيا : من النماذج الجيدة ، فهما تجربتان رائقتان بظلالهما الأدبية الطلية، و الروح الإنسانية الجميلة فيهما معا، تجربة الأول (صوفية) روحية خالصة ، و تجربة الثاني أدبية فكرية عذبة ، في مقامتين اثنتين أدبيتين له .

من أولى التجارب في هذه المرحلة المتقدمة في القرن التاسع عشر إذن تجربة (الأمير عبد القادر) المجاهد الجزائري: (1807-1882 م) .

لم يضع (الأمير عبد القادر) عنوانا لمقامته، بل أسماها « شبه مقامة » [1] هكذا نصّا، و قد أثبتها في مطلع المجلد الأوّل من كتابه « المواقف في التصوّف و الوعظ و الإرشاد» و هي ذات قسمين : أوّلهما نثري و هو جوهر المقامة ، و ثانيهما شعري تكميلي للصورة ، يعمق الجانب الأوّل، و يؤكّده ، و هو أكثر مساحة (271 بيتا) .

و قدم الكاتب (مقامته) بلغة مباشرة تفصح عن مضمونها ، تعلن رؤية الكاتب و رأيه ، و موقفه الديني من الموضوع ، و من المعترضين عليه ، قائلا في سياق تقديم للكتاب كلّه: « هذه نفثات روحية ، و إلقاءات سبوحية ، بعلوم وهبية ، و أسرار غيبية ، من وراء طور العقول ، و ظواهر النقول ، خارجة عن أنواع الاكتساب و النظر في كتاب ، قيدتها لإخواننا الذين يؤمنون

[1] الأمير عبد القادر الجزائري . كتاب المواقف في التصوف والوعظ و الإرشاد. ص : 10 . دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة و النشر، دمشق. 1966 م .

بآياتنا ، إذا لم يصلوا إلى اقتطاف ثمراتها ، تركوها في زوايا أماكنها ، إلى أن يبلغوا أشدّهم ، و يستخرجوا كنزهم ، و ما قيدتها لمن يقول هذا إفك قديم و أساطير الأولين ، و يحجر عل اللّه تعالى ، و يقول أهؤلاء منّ اللّه عليهم من بيننا من من علماء الرسم ، القانعين من العلم بالاسم ، فإنّنا نتركهم و ما قسم اللّه تعالى لهم ، فإذا أظهروا لنا ملاما ، تلونا :« و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» و نعيرهم أذنا صمّاء ، و عينا عمياء ، و نقول لهم آمنا ، بالذي أنزل علينا ، و أنزل إليكم و إلهنا و إلهكم واحد، نحن له مسلمون، و لا نجادلهم، بل نرحمهم و نستغفر لهم، نقيم لهم العذر من أنفسنا في إنكارهم علينا، إذ جئناهم بأمر خالف لما تلقوه عن مشايخهم المتقدمين، و ما سمعوه من آبائهم الأولين، فالأمر عظيم ، و الخطاب جسيم، و العقل عقال ، و التقليد بال ، فلا عاصم إلاّ من رحم ربي .

و طريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلم ، و لا الحكيم المعلم، لكن طريقة توحيد الكتب المنزلة، و سنة الرسل المرسلة، والتي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين، و الصحابة و التابعين، و السادات العارفين ، و إن لم يصدقوا الجمهور و العموم، فعند اللّه يجتمع الخصوم » [2] .

و قد انطلقت (المقامة) بحديث الراوي، و هو في البدء صيغة ضمير المتكلّم، و تبعا للسياق هو (الأمير) الذي يعلن نفسه في آخر فقرة من (المقامة) باسم عصام لكنّه لم يكد يمضي قليلا في البداية حتى أشرك معه في الرواية شخصية أخرى سرعان ما تنهض (بالبطولة) هي شخصية « العريف » الذي قدمه الراوي الأوّل كما يقدم أحيانا (عيسى بن هشام) البطل(أبا الفتح الإسكندري) فإذا قال (عيسى بن هشام) مثلا في (المضيرية) : « كنت بالبصرة و معي أبو الفتح الإسكندري رجل الفصاحة

[2] المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .

يدعوها فتجيبه و البلاغة يأمرها فتطيعه ، و حضرنا دعوة بعض التجار » [3] فقال الأمير عن (العريف) إنّه « عريف الجماعة، و مقدم أهل البراعة » [4] فقد أسند إليه دور (أبي الفتح) البطولي متلمّسا عنصر التشويق، و إثارة الفضول من البدء هكذا : « حضرت محاضرة من محاضرات الشرفا، و مسامرة من مسامر الظرفا ، في ناد من أندية العرفا ، فجاءوا في سمرهم بكلّ طرفة غريبة، و مستظرفة عجيبة، و كان الحديث شجونا، ألوانا و فنونا، إلى أن تكلم عريف الجماعة ، و مقدم أهل البراعة، قال : أحدثكم بحديث هو أغرب من حديث عنقاء مغرب، اشرأبّوا لسماعه، و مدّوا أعناقهم ، و فرغوا قلوبهم ، و حدّقوا أحداقهم» [5] .

---

(3) بديع الزمان الهمذاني . مقامات الهمذاني، ص :104، تقديم: محمد عبده، ط :5 ،المطبعة الكاثوليكية، بيروت،1965م .
(4) الأمير عبد القادر . كتاب المواقف . ص : 10 .
(5) الأمير عبد القادر . كتاب المواقف . ص : 11 .

و هــنا ينحرف الكاتب بوظيفة بطله، إلى راو، كحال (عيسى بــن هشام) تماما حين يخلف (أبا الفــتح) في البــطولة، كما فعل في (البغدادية) مثلا، فيعلن (عريف الجماعة) لدى الأمير استعداده لــرواية الوصول إلى (المعشوقة) التي هي (الذات الإلهية) قائلا: « إنّ فــي الوجــود معشوقة غير مرموقة، الأهوية إليها جانحة، القلوب بحبها طافحة، و الأبصار إلى رؤيتها طامحة، يطير الناس إلــيها كــل مطــار، و يرتكبون الأخــطار، و يستعذبون دونها الموت الأحمر، و يركبون لطلبها المكعب الأسمر (*) و لا يصل إلــيها إلا واحــد بعد الواحد، في الزمان المتباعد، فإذا قدّر لأحد مشارفة أسوارها، و مقاربة مرماها، ألقت عليه اكسترا لاله مادة و لا مــدة، لا هــو عيــن معتّدة، فيحصل انقلاب عينه، و جميع الأعيان في عينه، إلى عين هذه المعشوقة، التي هي غير مرموقة، المعلومــة المجهولــة، المغمــورة المســلولة، الباطنة الظاهرة،

(*) مـن التكعيـب . و المقصـود بـذي الكعوب حسب النص (قناة الرمح المكعبة) ليكون الأسمــر صفة (الرمح) .

المســتورة الســاترة، الجامعة للتّضاد، بل و لجميع أنواع المنافاة و العناد، و لا يقدر أن يعبر عنها بعبارة، و لا يشير إليها بإشارة، أكــثر من قوله : أني وصلتها و حصلتها ، و بعد التعب و العنا، و معانــاة الضنا ، وجدت هذه المعشوقة؛ أنا !! و يتبين لي أنني الطالــب و المطلــوب، و العاشق و المعشوق !! فما كان هجري للذاتــي، إلا في طلب ذاتي، و لا كانت رحلتي، إلا لنحلتي، و لا وصولي إلاّ إليّ، و لا تفتيشي إلاّ عليّ، و لا كان سفري إلاّ منّي فيّ إليّ !! فيقال له : هل رأيت محيّاها ، و شممت ريّاها ، حتىّ قلــت أنــا إيّاها ؟! فيقول : رأيت ، و ما رأيت ، و ما رميت إذ رميــت ، و يأتــي بأوصافها بما تنبو عنه العقول ، و لا تحتمله ظواهر النقول، ما طرق الأسماع، و لا طمعت في فهمه الأطماع، بــرفع الضــدين تــارةً ، و تــارة يجمعهما . و يجمع النقيضين ويضــمهما ، فــيقال لــه : هذا الذي تقوله ؛ ثبت عندك بدليل أو برهان ؟! فيقول : لا دليل بعد عيان :

و كيف يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل ؟!

فـــيراجع فـــلا يرجع، و يغلّط فلا يسمع، و حينئذ؛ يحكم الناس علـــيه بالجـــنون و العـــته و الســـفه و البله، يجهّلونه و لو كان أعلمهم، و يسفهونه و لو كان أحلمهم، و يستبيحون منه العرض، فـــي الطول و في العرض، و يجعلونه مرمى غمزهم و لمزهم، و نـــبزهم و وكـــزهم ، يهجره الحميم العاطف، و يقليه الصديق الملاطف، وهو مع هذا ناعم البال بما لديه، قرير العين بما حصل بين يديه، لا يلتفت إلى قطعهم و هجرهم، و لا يبـــالي بلوغهم فيـــه و هجرهـــم !! » [6] .

و هـــنا ينتهي دور (العريف) لتخلفه شخصية (الراوي) الثاني (عصام) و هي شخصية الأمير نفسه؛ فتتحوّل إلى شخصية بطلة، تـــنهض بالمغامرة، أو الرحلة الروحية لإدراك الحقيقة الإلهية كما رمـــز إليها (الأمير) على لسان (العريف) باسم (المعشوقة) فأعلن

[6] المصدر نفسه . ص : 12 .

عــزمه على خوض الغمار للوصول إلى كلّ ما يمكن من حقيقة ذلــك : حقيقة أو مجازا، مستهينا في سبيل ذلك حتى يدفع "مهجته يمــوت، فــيعذر، و لا عليه إن لم يقبر" فهو قد وطّن نفسه على المكــابدة، و مواجهــة العواصف ، و اختراق الآفاق المجهولة ، و خــوض عباب الأمواج العالية ، معتمدا العون من اللّه ، غير مبال بما يلقى من عنت و أهوال في مكابدة التجربة الروحية التي تتكئ على ظلال مادية لتقريبها من الأفهام ، قائلا منذ البدء و هو يعلــن عــزما أكــيدا على الموت في سبيل الوصول إلى حقيقة (المعشوقة) أو مجازها ، ليمد بها أصحابه التواقين للعيش في هذا الوجد الروحي المشرق عبر العيش في الحقيقة الإلهية التي قد لا يدركهــا عقل ، لكنّه يدركها ذوق دق و رق ، و يتشبع بها عمقا روحــيا ســاميا :« فلمّــا تمــت القصة و اجتليت عروسها على المنصة، و ما كاد أن ينقضي إعجابنا منها، و استغرابنا لها، فقلت لهــم: يا قوم ألستم تعلمون أنّي طلاّع الثنايا ؟ و سباق الكتيبة إلى

معترك المنايا ؟ فأنا آتيكم بحقيقتها و مجازها ، و أفك لكم المعمّى مـــن ألغازها ؛ أو أموت فأعذر ، و لا علي إن لم أقبر ! فقال لي بعـــض المستبصـــرين مـــن الحاضرين ، و كان ممّن جرب هذا الأمـــر ، و فرّ عن تجربته الدهر : إن صدقت لهجتك ، و هانت علـــيك مهجتك ، و أردت الوصول إلى ذلك الجناب ، و قطع تلك الجبال و البحار و الهضاب ؛ فاركب نسرا أو غرابا و أنّه لا ينال ما قصدت ؛ إلاّ من كان على الهمّة قوي العزمة .

إذا هم؛ ألقى بين عينيه عزمه　　　ونكّب على طرق العواقب جانبا

ولم يستشر في رأيه غير رمحه　　　ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

لا يصرفه صارف، و لا تحركه العواصف، حلس من أحلاس الخـــيل ملّـــه النهار و الليل، أسد في شجاعته، خنزير في حملته، كلب في وقاحته، أذنه صما عن العاذل، و عينه عميا عن الهاجر و الواصل، و طريق مطلوبك طامسة، و أعلامها دارسة، بحرها

تــيّار، و هوائهــا نــار، و أرضـــها مفاوز قفار، أسدها كواسر، و أغوالهــا عن أنيابها حواسر، مهامه فيج جاهل ، العارف فيها جاهل، و الدليل الخريت بها حائر ، و التيه فيها هلاك حاضر.. .

فقلــت لـــه: جهتها أي الجهات ؟ فقال لي هيهات هيهات!! لا يســتفهم عــنها بمــتى و لا أين، و لا يرشد إليها أثر و لا عين، فاعــتمدت علـــى الواحــد الأحد، لا ألوي على أحد، فمررت في طريقـــي، علـــى فرق من فريقي، فرأيتهم بين سادم باهت، لا هو بالحاصل و لا الفايت ، و بين حائر واقف، التبست عليه المواقف، و بين غريق في لجج تلك البحار، و تايه في تلك المفاوز القفار، و بين من نقبت راحلته ، و آخر دبرت زاملته ، و بين من يدرب دبيب النمل ، حافيا بلا نعل ، مررت على جماعة منهم في بعض المشـــاهد فأنشدوا لي قصيدة فيها نحو العشرين بيتا ، رجعت إلى الحس ببيت واحد منها ، و هو :

أيا من نحن في تعب الجبال   و هو يخوضها و لا يبالي» [7]

و كي يمهد الكاتب للذة الكشف ، يحرص على أنّ الطريق إلى ذلـــك موغــل فـــي البحث ، موحش في الرحلة ، ذو ضنى في المكابدة و المغامرة ، كمن يمتطي نسرا ، أو غرابا ، و هو جهد ضروري في معاناة (الوصول) و (الإدراك) بالفكر الذوقي القائم علـــى الفطرة ، لا المنطق العقلي القائم على التحليل و التعليل ؛ لأنّ الحقـــيقة الصوفية التواقة للذوبان في الذات الإلهية تستعصي على العقول الجبارة ، فهناك الحقيقة الأكبر إذن ، التي تعلو على كـــلّ (فلســـفة) و (تفلسف) في عقول فضاؤها محدود و إمكاناتها قاصـــرة بطبيعـــتها فـــي هذا الموضوع الذي يستعصي عنها كلّ الاستعصـــاء : « . . . . و مـــا زلـــت ممتطـــيا صهوتي النسر و الغـــراب، محمّلا نفسي كلّ مكروه ، مستعذبا أنواع العذاب، لا تطمئن بي دار، و لا يستقر بي قرار، إلى أن ظهرت لي الأعلام،

---

(7) المصدر نفسه ، ص : 13 .

التي ظهرت لمن قبلي من الوافدين الأعلام، و نادى المنادي وحدا الحادي :

أبشر بوصل بهذه العلامات   كم طالبين، ودون الوصل، قد ماتوا

و ألقى عليّ ما ألقى عليهم ، و ثبت لديّ ما ثبت لديهم، و لما وصــلت حيــث وصلوا، و حصلت على ما عليه حصلوا، طلبت الإباحــة و الجواز ، و قد عرفت الحقيقة و المجاز، فقيل لي : لا تتخط رقاب الصديقين ، أرجع فما وراء موقفك إلاّ العدم المحض، لا ثبات و لا ركض » (8) .

و هكــذا يدرك البطل (طلاّع الثنايا) أنّ الإدراك الحسّي لحقيقة الــذات الإلهــية ، لهــو و مضيعة وقت ، كما هو حال من يريد الوصــول عبر العقل إلى فلسفته ، فلم يبق من سبيل إلى ذلك إلاّ « الــذوق » ذوق الأخــيار الذيــن فتح اللّه عليهم ، من رجاله الصالحين .

---

(8) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .

هـــنا اقتـــنع البطل (عصام) كلسان حال للأمير عبد القادر أن (عـــريف الجماعـــة) كـــان عل حق ، في قلقه، و قصور فهمه، و استحالة إدراكه بالسبل المعتادة المتاحة للجميع ، الإدراك : فتح يهـــبه اللّه من يشاء ، ليعرف ما يتوق إليه لا عبر عقل و حس، إنّمـــا عـــبر الذّوق و القلب، فالعريف إذن كان صادقا ، و ينبغي الأخـــذ بحكمـــه على سبيل اليقين ، فلا يجادل كما لم تجادل قط (حذام) ذات (النظر) البعيد :

إذا قالت حذام فصدّقوها فإنّ القول ما قالت حذام

فيقول (الراوي) الذي تحوّل إلى (بطل) ثم عاد إلى (راو) معلنا اســما مجازيــا له : « و حين رجعت إلى الأصحاب، قالوا : ما وراءك ياعصام ؟! فقلت : القول ما قالت حذام، و لكن يا قوم، لا تعجلــوا بــا لعتــب و اللوم ، أرأيتم لو جاءكم عنّين عديم حاسة الــذوق ، و قال عرفوني لذة الجماع ، بم كنتم تفهمونه علم ذلك و تعلمونــه !! فمــنهم مــن سـلّم و أنصــف ، و منهم من ألحّ

و تعســف ، و ربّــك أعلم بمن هو أهدى سبيلا ، و أقوم قيلا ، و عندما ينجلي الغبار ، يتبين راكب الفرس من الحمار » [9] .

بهذا تنتهي (المقامة الصوفية) للأمير عبد القادر ، معلنة رأيه فــي الموضوع، حيث الفتح الإلهي نعمة يهبها اللّه من يشاء من عباده الصالحين، بعد(المكابدة) و الإخلاص، و الحب، و يحجبها عمــن دون ذلك، فالحقيقة الصوفية هبة ربانية: تقوم على الذوق، فــتغمر الــنفس، و يدق فيها الوجدان، و يسمو الشعور، و تتألق الأحاسيس الإنسانية الرفيعة بظلالها النورانية الدافقة تترع النفس بشــرا و تغمرها سعادة، و تملأها طمأنينة و سلاما مقيما استقر، فلا يبرح و لا يريم، متذوقا (الخمر) الإلهية، سعيدا منتشيا بكشفه الذوقي.

هذه (المقامة النثرية) يطوّرها (الأمير عبد القادر) مباشرة بعد الانــتهاء منها، في منظومة مطوّلة، في أكثر من (270 بيتا) بل

[9] المصدر نفسه ، ص : 25 .

هـــي (271) مـــوزّع المشاعر فيها بين إدراكه و كشفه، و بين ظـــلال الـــذات الإلهية، و من هذا الحشد من المشاعر و الأشواق و الـــرؤى و الصـــور، نلتمس قليلا من الأبيات بما يعطي فكرة تقريبية، عنها :

فلو رأيت الذي شاهدته علنا ... لكنت تعذرنا إذن أعاذلنا
وكنت تعلم كيف الأمر متضح ... و كيف قلنا الذي قلنا و قيل لنا
وكنت تبكي دما تقول وأسفا ... و تبذل الروح منك كي تواصلنا
محزون قلب له شغل بغايته ... ترى لنا الفضل حيث الله فضّلنا
فشؤم نكرك يا مشؤوم حاق بكم ... ما راعنا أبدا وقتا و هوّلنا
فنحن في غبطة صفا الزمان لنا ... منعمون بنا الإله خوّلنا
جمالنا بعلوم أنت تجهلها ... بها حبانا الذي أهدى وجمّلنا
عرفنا كلّ الذي و صفتمونا به ... و نحن أعرف منكم بأنفسنا

* * * * * * * * * * * *

أمطنا الحجاب فانمحى غيهب السّوى   و زال و أنت و هو فلا لبس

و لم يبق غيرنا و ما كان غيرنا   أنا الساقي و المسقي و الخمر و الكأس

أوقات وصلكم عيد و أفراح   يا من هم الرُّوح لي و الرَّوْح و الرَّاح

يا من إذا اكتحلت عيني بطلعتهم   وخفقت في محيا الحسن ترتاح

دبت في كلّ جوهره حُميّاهم   عقل و نفس و أعضا و روح

. . . .

أريد كتم الهوى حينا فيمنعني   تهتّكي، كيف لا و الحبّ فضّاح

. . . .

ما جنّة الخلد إلاّ في مجالسهم   فيها ثمار و أطيار و أدواح

هوى المحبّ لدى المحبّ أين ثوى   يرتاح مهما تهب منه أرواح

* * * * * * * * * * * *

فيا نورا بلا شمس   و يا شمسا بلا نور

و يا بحرا بلا حدّ   و ساحلا بلا بحر

و يـا فـجـرا بــلا لــيـل و يـا لــيـلا بـلا فـجـر
لـقـد حــيّـرتـنـي حـتّـى في حـيـرتـي و في أمـري
و حـار كـلّ ذي كـشـف و ذي عـقـل و ذي فـكـر

ثم ينهي (الأمير عبد القادر) مطولته بفقرة نثرية عن الحب الإلهـــي، وخمرته الربانية، تستمد روح (المقامة) النثرية أو (شبه المقامـــة) كمـــا أسماها، و ظلال المطلولة ذاتها، معلنا (الراحة) و (الســعادة) بالوصـــول إلى (الكشف) بينما يمضي الضالون في غيهم يعمهون، من باب الفتح محرومون، فيقول أخيرا إذن :

« لما انفتح الباب و ارتفع الحجاب، و اجتمعت الأحباب على الشــراب اللذيـــذ المستطاب، رتب الأفراح حيث ما دبّت الراح، و بعد أن طار السكر و المحو و تزل الحضور و الضحو، رأيت شمســا طالعة، مشرقة ساطعة، و الناس في ظلمة و ليل، و مرج و ويـــل، فقلــت ما بال الناس ؟ فقيل : إنّهم في عمى و إفلاس،

و مـــالكم و لهم ؟! إنّهم عاتم و أنتم عالم، و اللّه غالب على أمره الحاكم العزيز العالم ».

و إن بدا الشكل الفني لنوع (المقامة) هنا مقصودا تصريحا، و لغة و أسلوبا، فإنّ الارتباك واضح في (الرواية) و (البطل) حيـــث وزّع الكاتب الأدوار بشكل اعتباطي غير ناضج بين اسم حمـــل لقـــب « عريف الجماعة » و هو شخصية دينية باسمها، صوفية لتوقها فتخوض مغامرة الكشف مغامرة تترك الآخرين من دون الحصـــول علـــى جواب شاف، فتخلفه شخصية أخرى للقيام بالدور نفسه : هي شخصية (عصام) التي تنسحب حسب السياق علـــى شخصـــية (الأمـــير عـــبد القادر) التي بدت أكثر عزما و إصرارا ، فهـــو «طلاّع الثنايا » فيكابد الشوق و التوق متحديا المخاطـــر، غير عابئ بالذين فشلوا في الوصول، أو المعرضين عـــنه يأسا أو ضلالا، بينما يتسلّح هو بالصبر و الإخلاص، حتى

أدرك غايته بفضل الجهد و المثابرة، و التجربة، و المشاهدة التي قوامها الذوق أوّلا و أخيرا.

قام هذا الذوق على مشاهدة وجدانية في تجربة روحية، نهجت نهـج المغامرة الصوفية، في إدراك الذات الإلهية، و لم يتأت ذلك إلاّ بالمكابدة، و المجاهدة التي لا يتوفّر على الاستعداد لها الجميع، لكـنّ الـبطل هـيّأته معارفه الدينية، لخوض التجربة، كما هيّأته نفسـيته، و توقه الروحي، بحثا عن ملاذ في ظلال نورانية تشيع فـي النفس دفئا، و تغمرها سلاما، بعيدا عمّا يتصارع فيه الناس، القاصـرون دون إدراك (السـرّ) الـذي كـان دائمـا يتوق إليه المتصوّفون : شعراء و ناثرين و سواهم.

مـن هـنا تبدو(المصطلحات) الصوفية، و ظلال الصوفيين، و توقهـم و شـوقهم أمـرا طبيعيا في هذه (المقامة) بمضمونها الدينـي، و إطارها الأدبي، الذي هو (المقامة) الذي لم يعد (كُديَةً) و احتيالا، بل توظيفا للإطار: كي يملأ بمضامين مختلفة، تختلف

فيها الموضوعات، و الغايات، كمل يختلف بعض الشيء الأسلوب نفسه.

و رغـــم أن هذه التجربة للأمير عبد القادر معبرة تعبيرا قويا عـــن صاحبها، ثقافة و ميولا، فهي أيضا معبرة عن عصرها في الـــنزوع إلى (الانطواء) تحت عوامل مختلفة، بما فيها الظروف النفســية للشخصــية غــير المفصــولة عــن ظروفها السياسية و الاجتماعــية في جو عام، من القرن التاسع عشر الذي لم يشهد أي تطور لنوع المقامة، و ليس هناك ما يشجع عليه و على غيره أيضا من فنون القول الأخرى، ومن ذلك النشر، و القارئ نفسه.

*　*

إن فقـــر القرن التاسع عشر كغيره في هذا النوع الأدبي يرجع إلـــى غـــياب وســـائل التبليغ أساسا: نشرا، و توزيعا، فضلا عن الظــروف الصّــعبة التـــي عرفـــتها (الجزائر) يومئذ خصوصا

و الوطـــن العربـــي عمومـــا : سياســيا، و اقتصاديا، و ثقافيا، و اجتماعــيا، ممّا زهّد في كلّ شيء، بما في ذلك الكتابة الأدبية الفنـــية، خصوصـــا من ذلك النّوع الذي يتطلب بعضا من طول الـــنفس، و سَـــعَة الـــبال، و خلوّ الذهن من المنغصات الخاصة، و العامـــة : ممّـــا يحول دون الكتابة الفنية الناضجة، و إن أفسح المجـــال للكلمـــة الشـــعرية المرتـــبطة بلحظة انفعال، و صياغة موقف، لم يكن لدى شعرائنا القليديين يتطلب (معاناة) و (مكابدة) كبيرتين، لطابع المباشرة، و العفوية في القصيدة التقليدية يومئذ.

مـــع ذلـــك نلتقي في نهاية القرن التاسع عشر مع نموذج فنّي متميز، لشاعر كاتب مؤلّف من ممثلي هذه المرحلة، و هو الشيخ (محمـــد بن عبد الرحمن الديسي) المولود في (1854 م) المتوف سنة (1921 م).

أمّا عمله هذا الذي وصفناه بالتميّز، فهو (المقامة – المناظرة) التـــي ألّفهـــا بعـــنوان « المـــناظرة بيـــن العلم و الجهل » سنة

(1314هـ/1895م)[10] لكنّ نشرها تأخر عن ذلك، إلى سنتي: (1908م) و (1909م) حيث نشرت جريدة (كوكب إفريقيا) بالجزائر نحو ثلثيها، في ثلاثة أعداد، العدد: (77) الصادر في 27 رمضان 1326هـ (1908.10.23م) و العدد (80) الصادر يوم18 شوّال 1326هـ (1908.11.13م) ثم العدد (89) في 15 ذي الحجة 1326هـ (08 جانفي 1909م).

ثمّ نشرتها مطبعة (بيكار) و شركائه، في (تونس) ككتاب، لكن من دون تاريخ. غير أنّ المؤكد أن هذه (المقامة-المناظرة) قد كتبت مع نهاية القرن التاسع عشر بالنّص الصريح في آخرها، حيث يقول الكاتب : « و الغرض من تلفيق هذه الكَلِمِ، و نظمها

(10) انظر: د. عمر بن قينه، الديسي : حياته وآثاره وأدبه، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.

فـــي سِـــمطِ الحكمِ، و اللّه أعلم بالنيات : إيقاظ العزايم و تحريك الهمم تمام سنة أربع عشرة و ثلاثمئة و ألف رابع الحجة » [11] .

كتبها بعنوان (المناظرة) ثم بدا له أن يصنفها في نوع (المقامة) بفعـــل طابعها القصصي، و أبطالها، و مجال الحدث، حيث جرت أحـــداث المناظرة الحوارية في مجلس استدعى في النهاية حكَما، يـــتدخل لحل الخلاف الذي نشب منه الجدل بين لسان (حال العلم) و لسان (حال الجهل) كما بدا له أنّه لقي تشجيعا عليها و استحسانا لها، و إيثارا أيضا لاسم (مقامة) جديرة بالشرح؛ فتصدّى لها هو نفسه بشرح يقع في (مئة وثلاثين صفحة) لا يزال مخطوطا لدى أحـــد أحفـــاده، و أطلق عل هذا الشرح اسم « بذل الكرامة لقراء المقامة ».

فهـــي إذن (مـــناظرة) امتطـــت شـــكل المقامة : شخصياتُها، و جوُهـــا، و لغـــتُها، المنـــتقاة، و ســـجعُها، و موســـيقاها، فما

(11) محمد بن عبد الرحمان الديسي، المناظرة بين العلم والجهل، ص 13، مطبعة بيكار وشركائه، تونس،من دون تاريخ.

موضوعها ؟ بل ما الغاية منها ؟ لقد كشف الكاتب عن هدفه منها، و هو تحريك الهمم، للحوار، و النقاش و الإبداع في إطار أدبي، فـاتخذ لذلك موضوعا قائما في كل زمان و مكان، تقريبا، و هو حيازة الجهلة و الأميين: المال و الجاه، و المتاع في الحياة الدنيا، التي لا يظفر فيها المثقفون إلاّ بالعناء و النّصب، و شظف العيش، مـع الـبقاء على هامش الحياة في مواقع التأثير الفاعل: سياسيا و اقتصـاديا و اجتماعـيا، فتاق الكاتب إلى الوصول إلى مبرّر، فاخـتلق لذلـك أشخاصا هم : الراوي، أي قلم (المؤلف) و لسان (حـال العلـم) و لسـان (حال الجهل) ثم لسان (حال الإنصاف) فيجري الجدل وسط قوم، في مكان حدّد مسبقا في يوم معلوم.

يفتـتح الكاتـب مقامـته (المـناظرة) هكذا « بعد حمد ملهم الصّـواب، و كاشـف الأوصـاب، و الصلاة الكاملة و التحيات

المتواصـــلة الشـــاملة على سيدنا و مولانا محمد و آله و صحبه و الفئة العالمة العاملة»[12].

فالافتـــتاح ديـنـــي تقلـــيدي تضمّن (براعة استهلال) في جزء جوهري، من لبّ النتيجة من الحوار بين حالي (العلم) و (الجهل) و قد شهده حضور في يوم معلوم.

كان (العلم) هو البادئ بالكلام معتدا بنفسه ساخرا من (الجهل) رغـــم أنّ الكاتـــب يقدمه في حالة مزرية توعز بضعفه و هزاله و تهميشـــه، انعكاســـا لما آلت إليه أوضاع المثقف و الثقافة في (الجزائر) بعد الاحتلال الفرنسي، فيصوّره و هو ينهض للمرافعة هكذا « فقام العلم و قد شاخ و أسنّ، و أدركه الضعف و الوهن، بـــادي الإعـــواز، يـــتوكّأ علـــى عكّاز، في رثّة حال، و أطمار و أســـمال، فبسمل و حمدل، و حسبل و حوقل، و صلّى و سلّم، علـــى خير من علِم فعلّم، و قال: يا جهل ما أنت لخطابي بأهل،

[12] المصدر نفسه، ص: 2.

و لا جدالـــي علـــيك بسهل، يا موت الأحيا و يا قليل الحيا، و يا سبب تفليس إبليس، و يا حِلْية كل دنيء و خسّيس، كيف تكون لي أنت المجاري، و العلم صفة الباري » [13].

فقـــد بـــدأ العلم بمثالب (الجهل) معلنا الفرق بين من (يفهمون) و من (لا يفهمون) باعتبار « العالِم و المتعلّم و العلم في الجنة » فيذكر لهذا صفات (العلم) و مزاياه و فضائله قائلا: « إليّ ترجع الأربعـــة أركـــان التي بها شرف الإنسان، علوم الأديان، و علوم الأبدان، و علوم الأذهان، و علوم اللّسان».

فيكفـــي العلـــم شـــرفا في نظر (لسان حاله) : « أن كلّ أحد يدّعـــيه، و كـــل ذي فطـــرة سليمة يقصده و ينتحيه » أما أبناؤه (العلمـــاء) فهـــم « هداة العباد، و مصابيح البلاد، زينة المحافل، و رؤســـاء الجحـــافل، أيامهم بالمحاسن معمورة، و مساعيهم في

(13) المصدر نفسه ، ص : 3 .

الصالحات مشكورة » و هم أخيرا ذوو اختصاص لامعون في كلّ فن، و فرع من فروع المعرفة.

لكـــنّ لسان (حال العلم) يلوح بالائمة على الزمن الظالم الذي امـــتطاه الجهلـــة و المنافقون، قائلا « فلتبك على سلفي الصالح المـــنابر، و الأقلام و المحابر...فلا يسعني إلاّ الرضى و الصبر علـــى مرّ القضا، و التقلب على جمر القضى » و هو في ذلك لم يهمل الصفات السلبية يلصقها بالجهل و أصحابه « يكفي الجهل قُـــبحُ وَسْـــمِهِ، و لكـــلّ مسمّى حظّ من اسمه، يخبط خبط عشواء و يركب متنَ عميا» ثم يأتي حال (حال الجهل) فيقدّمه الكاتب في صـــورة مستمدة من طبع (الجاهل) و سماته قبحا و زهوّا وخيلاء على النحو التالي، حين نهض : «أبرق و أرعد، و وعد و أوعد، و نهـــض فـــي أكمـــل شارة و أحسن بزّة، و قد انتفخ من الكبر و أخذته العزّة» ليخاطب (العلم) قائلا: « يا علم، ما هذا الإفراط فـــي الظلم....أما تخشى قوّتي....و بيدي المناصب، و أنا الرافع

و النّاصـــب، و المتصـــرّف فـــي الحكام، و إليّ مرجع الأحكام، و الـــنقض و الإبـــرام، و القهر و الإلزام....قد ملكت الأمصار، و ملأت الأقطار، و خفقت في الخافقين بنودي، و طبّقت المشارق و المغارب جنودي » [14].

ثـــم يضـــيف (الجهـــل) عـــن أبـــنائه (الجهلة) فهم في الدنيا «المـــترفون المـــنعّمون، و القوم الذين هم في العيون معظّمون، و يتمـــتّعون بفاخـــر الأكل و اللباس، و سواء عندهم ما بأس به، و مـــا بـــه بـــاس، فكم أجروا في الهوى أفراسا، و زيّنوا ولائم و أعراســـا، و عمّروا القهاوي و الحانات، وملأوا الاصطبلات و الخانات، و لهم المعازف و العيدان، و المغنّون و القيان، و لهم اللّـــيل و صـــهوات الخيل....بأيديهم المتاجر و الأسواق، و إليهم الأرزاق عفوا تساق ».

(14) المصدر نفسه ، ص : 7 .

يقول لسان (حال الجهل) هذا بعد أن يعدّد بدوره مثالب (العلم) الذي بنوه هم «الشعث الغبر، الذين ليس لهم عند أهل الدنيا اعتبار و لا قدر، إن خطبوا ردّوا، و إن عدّ الناس فما عدّوا، و إن غابوا فمـــا فقـــدوا، و إن حضروا فكأنهم ما وُجدوا، ما لهم شارة، و لا إليهم إشارة ».

و ينتهي لسان (حال الجهل) مخاطبا لسان (حال العلم) : «هبك صـــرت العلاّمـــة الثاني ما بلغت الأماني، فسلّم لي في سلطاني، فالزمان زماني، و الناس خدّامي، و الدّهر عبدي و غلامي، و قد آن أن تـــرجع من حيث أتيت، و تموت كما كنت من قبل حييت، و أنـــا نزلـــت إلـــى الأرض في هذه الساعة، و على أبنائي تقوم الساعة» .

ثـــمّ يتدخل (الحكم) في شخص (الإنصاف) كمصدر أسند إليه الكاتـــب مهمة الفصل بين الخصمين فقال: « أيّها الخصمان دعا الشّقاق و اتركا اللّجاج و لا تطيلا الحجاج، و أنتما المتعاقبان على

نـــوع الإنسان....قد اقتضت الإرادة الأزلية أن يكون العالم على هــذا النظام : جهلاء و أعلام، فلو كان الناس علماء كلّهم فمن ذا يقوم بالمهن، أو جهلاء كلّهم فمن ذا الذي يحفظ الشرائع و السنن، و ليست بينكما مصادمة، و لا كبير معاندة...و أنا أقضي بينكما بقضـــاء فصـــل و كـــلام جـــزل، فخيركما العالم العامل، ثم يليه المسترشـــد الجـــاهل، و لا خـــير فـــي غـــير ذَيْـــن مـــن كـــلا الصّنفين » (15).

و يعلـــن (الـــراوي) بهـــذا الموقـــف، انـــتهاء المواجهة بين (الخصـــمين) قائلا : «فانقضى الكلام و افترقوا بسلام، و خُتمت المقامة بحمد أهل الجنة في دار المقام ».

ففـــي هذه (المقامة) ميدان (الحدث) : مجلس (معلوم) حضره قوم في يوم أيضا معلوم، ليشهدوا مواجهة بين (لسان حال العلم) و (لســـان حـــال الجهـــل) كشخصيتين خياليتين، انضمت إليهما

(15) المصدر نفسه ، ص : 13 .

شخصـــية خيالية ثالثة هي شخصية (الإنصاف) تضاف إلى ذلك شخصـــية (الراوي) غير المسمى، و يفهم من السياق أنّه المؤلف الذي كيّف مجريات (الجدل) ليخدم غرضه، فيرفع شأن العلم في تقدم الأمم و الشعوب، و دور العلماء الحضاري، لكن يبقى العلم ورجالـــه يعـــانون عنت و تسلّط الأميين و الجهلة الذين اغتصبوا الســـلطة و الجاه و المال، فاحتكروا بذلك مُتع الحياة و رفاهيتها، و حـــرموا منها رجال العلم، و لم يسخّروها في ازدهار الشعوب و الأوطان، لذا قدّم الكاتب (لسان حال الجهل) في صورة عربيد تشـــغله أهـــواؤه و ملذّاته، فيبدو جِلفًا، مغرورا مستهترا، تشغله نزواته عن كلّ ما حوله.

و يحاول لسان (حال الإنصاف) أن يخفّف من حدة الصدام بين الخصـــمين، فيلوذ بالمنطق التوفيقي، الذي يرى أن الحياة تنهض بالطرفيـــن، لوضع حدّ، لما لا يوضع هنا له حدّ، إلا بانتصار قيم الخير والفضيلة.

لقـــد وردت مقامـــة (الديسي): (المناظرة) على ثلاث مراحل، ســبقها تمهيد قصير عن الجدل الذي حصل بين (العلم) و(الجهل) فــي يوم معلوم، بمكان ما، فكانت المرحلة الأولى التي ابتدأ فيها (العلــم) بالكلام « معيرا الجهل و أتباعه من أحبة و بنين » [16] واصفا إياهم بالبهائم «و إن لبسوا العمائم» و يأتي دور (الجهل) فــي المــرحلة الثالثة منتفخ الأوداج، معلنا سيطرته على شؤون الحياة، و سطوته بين الناس، ثم يأتي دور حال (الإنصاف) ليحكم بين المتخاصمين، داعيا لهما لترك «الشّنآن و...اللَّجَاج».

و قـــد بـــدا الدافـــع في (المقامة-المناظرة) فكريا، لبعث نشاط فكــري، و حركة نقدية و أدبية، فأعلن الكاتب ذلك صراحة بأنّه قصد بها « إيقاظ العزائم و تحريك الهمم» لذا اكتست هذا الطابع الأدبــي المشــرق، تحت عنوان (مناظرة) و التصريح في النّص أيضــا باسم (مقامة) و كرّر اسم (مقامة) بإلحاح، في مخطوط له

---

(16) عمـر بـن قيـنة، الديسـي حـياته و آثـاره و أدبـه، الشـركة الوطنـية للنشر والتوزيع ص: 194 ، الجزائر 1980.

شرح به هذه (المناظرة) في نحو مئة و ثلاثين صفحة أسماه «بذل الكرامة لقراء المقامة».

و (المقامة-المناظرة) توفّرت على أهم العناصر التقنية في (المقامة الأدبية) من إعداد (المقام) أو (المجلس) و أسلوب الرواية، و الحكاية التي جاءت في مجرى جدال أشاع حيوية في الموضوع، ثم العناصر البشرية، فهناك (الراوي) النّكرة الذي اختفى (المؤلف) وراءه، ثم هناك (الأبطال) الثلاثة (لسان حال العلم) و (لسان حال الجهل) و (لسان حال الإنصاف) فضلا عن الطابع اللغوي، خصوصا في ذلك السّجع، الذي اتّسم عموما بالخفة و الرونق، و قصر الجملة، و وضوحها في الأغلب الأعمّ مثل، «متكلمون و فقهاء، و أصوليون و أدباء، ومناطقة و حكماء».

عبّرت تجربة (الديسي) هذه عن إحساسه بما آل إليه الوضع الثقافي تحت الاحتلال الفرنسي في النّصف الثاني من القرن

التاسع عشر، فعكس ذلك تصويره (العلم) بأنّه «شاخ» و «أدركه الوهـن» للتعبـير عمّا أصاب الحركة الثقافية عموما و الأدبية، خصوصا أن المرحلة التي كتب فيها تجربته كانت تؤذن بالخروج مـن (غيبوبة) إلى انتعاش واعد، فهو كتب المقامة سنة (1314 هـ/1895م) و نشرها في (1908-1909م).

و فيها إدانة لصوت (الغوغاء) الطاغي في مختلف جوانب من الحـياة، ممّـا يسهم في إزاحة القيم الخالدة، قيم البناء الحضاري الإنســاني، الــذي يحتل فيه العقل و العلم، و العلماء بالضرورة مكان الريادة، و الإجلال و الاحترام، فالمقامة فكرية أدبية : ذات خلفـية سياســية، ثقافـية، اقتصــادية، اجتماعية، يتمثّل الجانب (السياســي) في إدانة الاحتلال الأوروبي و قوى الشرّ التي كانت دائمــا تقــدّم الــنماذج البشــرية لجاهلة السلبية في مواقع القرار السياســي، فهي عناصر يعوزها الوعي الحضاري، فتفتقر للرؤية المســتقبلية، و يعكس الجانب الثقافي ما آل إليه الوضع بعد نهاية

المقاومة بقيادة (الأمير عبد القادر) من ركود أوّلا، و ما أذنت به مـبادرات مـن تطلّع للخروج من (غيبوبة) إلى (انتعاش) يفضي بالضرورة عند العمل و توفّر الإرادات إلى النهوض الفاعل.

و كاد الجانبان (الاقتصادي و الاجتماعي) يتجسدان في وضعية (رجـل علم) يعاني عنتا وتهميشا و ضنكا، بينما السّوقة قد ملكوا زمـام الأمـور فـي الحياة الاقتصادية و الاجتماعية، مثل الحياة السياسية.

غـير أن الـتجربة كثيرا ما ارتبكت لدى الكاتب، في أقوال يسندها إلى (العلم) و أخرى يسندها إلى (الجهل) فيصور (الجهل) في موقف ليس من طبيعته كما يفعل مع العلم، كما يُنْطَقُ ذلك بما يـناقض موقعه و مستواه، خصوصا حين يجعله (فجأة) ذا معرفة بالتاريخ، و العلوم التي لم تجد (العلم) و (العلماء) نفعا في حياتهم، فبعض مثالب (الجهل) «بدل أن يرفضها الجهل نفسه أكّدها بدوره بطريقة مباشرة، أنطقه بما ليس من طبيعته النطق به، كأن يوعز

المؤلـف إلـيه بـأن يفخر بما يراه الناس رذيلة، ليجعل منه هو فضـيلة، إمعانـا فـي تحقـيره أمام الناس، مثل ارتياد الجهلاء (القهـاوي) و (الحانات) فـ (ملأوا الاصطبلات والخانات) و لا يغيـب عـن أذهانـنا ما في معنى ارتيادهم (الحانات) و إقامتهم بالاصطبلات من إهانة، و تحقير، و هو كلام معقول جدا لو ورد علـى لسان حال العلم، لكنّ المؤلف أورده على لسان حال الجهل الـذي يسـتحيل أن يعـرّض بنفسه، إلاّ بإيعاز من الكاتب لتنفير الآخريـن منه أكثر، و هو أسلوب أشدّ التصاقا بالوعظ و الإرشاد للبسـطاء، تحبيـبا للعلم، و تحقيرا للجهل، كما أن هذا دليل على وضع العلم و العلماء في وقته، و هو رأي جيّد دقيق و معبّر عن الواقع » بمختلف وجوهه كما عاشه الكاتب في عصره.

«و يشـبه هـذا الموقف للجهل موقفا آخر وقفه من الأسلاف الذيـن سـبق أن اعـتزّ بهم العلم، و بما تركوه من مجد، فأجابه الجهـل : (ماذا ينفعك ذكرك السالفين من الأعلام ، تلك أمة قد

خلت ، و رسوم درست ، و عفت ، فهل بذكركم ما مضى ، يعاد من رونق الأموي ، و بهجة الأزهري، و مسجد قرطبة ، و فخامة الزيتونة ، و ضخامة القرويين ، و شهرة المدارس الثماني ، و نظامية بغداد ، فهذا اعتراف صريح من الجهل بأفضلية العلم و ما له من مكانة» [17] ماضيا ، اعتراف يتناقض مع شخصيته العامة كما رسمها الكاتب له: عربيدا جِلْفا، و هو ضرب من ضعف التجربة، و التعبير عنها ، انسحب أيضا عن شخصية (العلم) التي كان (الراوي) يسندها ، لكنه يسهو فيقول « فلمّا فرغ العلم من القيل » ممّا يتضمّن ضعف الحجة ، فأتى هذا السهو -ربما- في سياق البحث عن السجع، فكان التعبير « و سمع الجهل ما في حقّه قيلَ » .

و مهما يكن من شيء، فإن هذا النص (المقامة-المناظرة) نموذج أدبي متميّز، و متقدّم جدا في الفترة التي كُتِبَ فيها ، ثم

[17] المصدر نفسه . ص : 199 .

نُشِـرَ ، نمــوذج نثري رائد مع نهاية القرن التاسع عشر كتابةً، و بداية القرن العشرين نشرًا .

و هو فضلا عما سبَق استَجابة لحاجة فكرية أدبية في مُناخ أدبي شــرعَ يــتطلّعُ للخــروج من الركود، ربّما من هذا المنطلق كان الاهــتمام كبــيرا بهذا النموذج مخطوطا أولا، و مطبوعا ثانيا ، و ربّمــا هو الاهتمام الذي حفّز الكاتب على تحرير شرح له ، لا يزال مخطوطا ، اسمه« بذل الكرامة لقراء المقامة» يقع في مئة و ثلاثين صفحة من الحجم الكبير، بدا فيه اطمئنانة إلى مناظرته - المقامــة ، باعتبارها « نموذجا من الأدب الرفيع ، كما يرى توفـيقُه فـيها هــبةٌ من اللّه» [18] الذي ألهمه الفكرة، والأسلوب الرشيق الذي عولجت به .

يقــول الديســي، في مقدمة : (بذل الكرامة لقراء المقامة) : « إن الأدب للعقول السليمة رياضة و أيّ رياضة ، يعرف ذلك

[18] المصدر نفسه ، ص : 194 .

مـــن انتشـــق أزهـــاره، أو دخل حياضه ، و قد أجرى اللّه على جنانـــي، و أنطـــق لســـاني بمقامـــة أدبية في المفاخرة بين العلم و الجهـــل، استحســـنها مـــن رآهـــا من الإخوان ، و أثنى عليها و استعذبَها بعض أهل العرفان » (19) .

و بدا أن هناك أمرًا لَفَتَ انتباه (الديسي) في تعليق الناس على مقامـــته، مـــن أن هذا الضرب من (الجَدَل) يفتح الباب للضغائن، و يجرّ إلى ضربٍ من « تنابز بالألقاب » المكروه شرعا، فكتب تحـــت عنوان « تنبيه » ما يلي : « قال بعض العلماء : إيّاك أن تشـــتغل بهذا الجدل الذي ظهر بعد انقراض الأكابر من العلماء، فإنّه يبعد عن الفقه، و يضيع العمرَ، و يورث الوحشة و العداوة ، و هـــو من أشراط الساعة، كذا ورد في الحديث، و قال بعضهم: إيّاك و المُرَاءَ فإنّه لا تعقل حكمته، و لا تُؤْمَنُ فتنتُه» ليضيف بعد هـــذا مباشرة دفعا لِلُّبس، « الإنصاف أنّ الجَدَل لإظهار الصواب

(19) محمـــد بـــن عـــبد الـــرحمان الديســـي، بـــذل الكـــرامة لقـــراء المقامة، مخطوط ، ص : 2 .

على مقتضى قوله تعالى (و جادلهم بالتي هي أحسن) لا بأس به، و ربَّمـا ينتفع به في تشحيذ الأذهان ، و الممنوع هو الجدل الذي يُضـيع الوقـت، و لا يحصـل منه طائل» فكري أو معرفي أو سواه .

ثـم يشـرع فـي شرح (مقامته-المناظرة) بمستويات مختلفة، حسب طبيعة الجملة أو الفقرة و أهميتها : لغة، و بلاغة، و معنى، ففـي شـرحه للتعبير عن (العلم) الذي« شاخ و أسنّ » يقول: « إن تمثيل المعقول بالمحسوس ، و إبرازه في صورة المشاهد ، و تصـويره المألوف أوقع في النّفوس ، و لذا كثرت الأمثال في كلام العرب ، و على أساليب كلامهم نزل الكتاب العزيز مستكثرا من ضرب الأمثال ، و كذا كثر في كلام الأنبياء و الحكماء» فهذا الشرح يضفي أبعادا جديدة إذن في رؤية الكاتب ، فيغدو مفيدا جدا فـي الأضواء المختلفة التي يلقيها على (المقامة-المناظرة) فتفتح أكثر من أفق آخر للناقد الباحث .

و للديسي مقامة أخرى أكثر صنعة ، و هي لا تزال مخطوطة، بعـــنوان « تفضـــيل البادية بالأدلّة الواضحة البادية » في أربع صفحات فقط ، قام بشرحها كذلك ، و فيها تعمّد المفردات اللغوية، و الإشـــارات التاريخية، و الأدبية، افتتحها بالحمدلة و الصلعمة، قـــبل براعة الاستهلال، معلنا أنه سيَطْرق في مقامته أمرا غريبا سها عنه (الهمذاني) و (الحريري) فلم ينطقا بطليهما به، فاستدركه (الديســـي) و أجـــد في نفسي هنا ميلا للاختصار، فأكتفي بنقل ما كتبته عن هذه المقامة في كتابي عن (الديسي حياته و آثاره) فبعد التمهـــيد يصـــل الكاتب إلى قوله « و من العجائب التي لم يحكها عيســـى بـــن هشـــام، و الغرائب التي ما عثر عليها في تطوافه الحـــارث بن همام : أن عقايل من بنات أقايل القبائل، اجتمعن في فصل الربيع، و قد ذبح الأرض غيث مريع . . . . ثمّ أخذ يذكر اجتماعهـــنّ تحت الأغصان ، و بين الكثبان (فطربن و لا طرب العـــذارى بـــدارة جُلجل) ثم يصل إلى صلب الموضوع (فقالت

واحــدة منهنّ : ألم تسمعن يا أخوات و يا بنات السّراة ما ينقل لنا عــن أديــب قــروي يقول بتفضيل ساكنات المدر على ساكنات الوبــر ؟ فقلــن كلّهن من أين له هذا التفضيل الذي ليس له عليه دليل) .

و أخــذن يفتخرن بخصال البدوي الذي يأبى الضّيم ، و يكرم الضّيف ، و يرعى حقّ الجار ، ثمّ يورد الكاتب على لسانهنّ ذكر محاســن الــبادية - في رأيه - (ما جسّنا طبيب، و لا لمستنا يد مريــب، و لا عرفنا المارستان، و لا احتجنا المعالجة بالإسهال ، قــد ســلمنا مــن مزمنات العلل ، و لم يمرض غالبنا إلاّ مرض الأجل ، و عوفينا من سيّئ الأسقام و الجنون و البرص ، والجذام ، و لــم ندخــل الحمامات ، حيث تقع الخيانات ، و معلوم أنّ ما انتفى عنّا من الوصم التصق بغيرنا على رغم الخصم) .

مــن أهمية هذه الرسالة(المقامة) أنّها توضّح لنا تحوّلا حدث فــي فكر الشاعر-الكاتب ، يتمثل في عدوله عن رأي سابق، في

تفضيل المدينة ، و رغم أنّنا لم نستطع تحديد تاريخ هذه الرسالة ، فإنّــنا اهتدينا إلى أنّها تحمل رأيه الأخير و النهائي في المفاضلة بين المدينة و البادية» [20] حين اهتدى أن تفضيله (المدينة) سابقا، يعتــبر مـــن الــتعدي و عليه فهو قد صار من عشاق (الوبر) لا (الحجر).

و رغم صغر هذه المقامة، و الإغراق بها في الغريب اللغوي، و الإشــارات الأدبية و التاريخية ، فهي من أحسن النّماذج أيضا في مطلع القرن العشرين .

و فــيها يــتكرّر الــراوي النكرة يغطي على الفاعل الذي هو المؤلــف، ثــم يرمي بمسار الحوار بين مجموعة فتيات ريفيات ضـــمّهنّ مجلس في البادية ، فأعلنّ احتجاجهنّ على الكاتب الذي اعتــبر رأيــه الســابق من « التعدي» و التجاوز الذي لم تغفره حســناوات الريف الجزائري الذي استدرج ريفا عاش فيه (امرؤ

---

(20) عمر بن قينة، الديسي حياته و آثاره و أدبه، ص : 28 .

القيس) و خاض مغامراته التي تاق الديسي لمحاكاتها فنيا ، و هو المولع بالطرافة في الفكر و الفنّ أساسا . . في نثره مثل شعره .

لقد عرف القرن التاسع عشر تقلبات سياسية مختلفة في الوطن العربي خصوصا، و الإسلامي عموما ، فانجرّت عن ذلك أوضاع فكـــرية و ثقافية و أدبية، اختلفت حيوية في مطلعه، و تردّدا بعد منتصـــفه فـــي (الجزائر) ثم انتعاشا آخره ، حين شرع المناخ الثقافي يتنفّس بعض الشيء، فبدأت تبرز أعمال في التراث، جمعا و تحقيقا و دراسة ، لازمتها بعض الحركة الأدبية . . يعنينا منها هـــنا النّثر الفني، و قد رأينا أن القرن التاسع عشر حفل بأعلام ، مـــنها أعلام أدب كتبوا في النثر كما كتبوا في الشعر، من أهمّهم (الأمـــير عـــبد القادر) و (الديسي) فرأينا للأوّل مقامته الصوفية، و للثانـــي مقامـــته « المناظرة بين العلم و الجهل» و « تفضيل الـــبادية بالأدلّة الواضحة البادية » فانتقلت شخصية (البطل) من شخصـــية ماديـــة بشـــرية فـــي « تفضيل البادية . . . . » إلى

شخصية معنوية ذات ظلال حضارية في « المناظرة» و كان الخيال سيّد الموقف في الحالتين، حيث سلك الكاتب أسلوب الحوار، و هو حوار اتّسم بالطول في (المناظرة) و بقصر المقاطع، في تفضيل البادية لكن بقي الكاتب في ذلك ملتصقا بالصور المادية العامة للأبطال و الأوضاع ، فالعلم « شاخ و أدركه الوهن، يتوكّأ على عكّاز» و الجهل : زمجر « و أبرق، و أرعد» و (مقاهيه) و (حاناته) ضجّت بالصّخب، لكن بقيت نوادي العلماء هنا يكسوها الهدوء و الوقار .

كما تبقى الألوان الصارخة واضحة، خصوصا في « فصل الربيع و قد ذبح الأرض غيث مريع» و مثلها الموسيقى القوية السريعة في السجع بألفاظها القوية عموما في (المناظرة) و الهادئة شعريا في (تفضيل البادية) .

في كلّ الحالات اجتهد (الديسي) في ابتكار ما يمكن أن يسهم في ضرب البرك الراكدة في الحياة الثقافية و الفكرية، للخروج

من غيبوبة أو سبات عميق إلى ما يحرك سواكن النّفوس، و يسهم فـــي إشـــاعة حيوية أدبية بدأت ملامحها مع أواخر القرن التاسع عشر ، فكان ذلك خطوة أولى للاحقها في القرن العشرين.

أمّا في القرن العشرين ، فإن شهدت الحركة الفكرية و الأدبية تطـــوّرا كبـــيرا فإنّ فنّ (المقامة) لم يساير هذا التطور، لا مادة ، و لا أســـلوبا ، لكنّه شهد بعض التطور المهم ، في حجم المادة ، و فـــي النشر، و في الرؤية الفكرية ، فالوضع شرع يختلف تماما منذ مطلع القرن : سياسيا و اجتماعيا و ثقافيا، أساسا، فقد عرف القـــرن سيلا من الصحف العربية ، كانت أولاها جريدة (كوكب افريقـــيا) لمدير تحريرها (السيد محمّد كحّول) و إن كان تمويلها اســـتعماريا مـــن الولايـــة العامـــة، فقـــد اتخذت العربية لسانا، و استقطبت أقلاما جزائرية ذات أهمية ، خلال استمرارها ، بين (1907م) و (1914م) فأســـهمت فـــي إشاعة الحيوية الأدبية، بطـــرقها لعدة موضوعات ، من بينها فن (المقامة) و (المناظرة)

فكتب فيها بعض أعلام الرحلة، من بينها (محمد بن عبد الرحمن الدّيسي) كما راسلها (عبد الحميد بن باديس) نفسه حين كان طالبا في (تونس) قبل أن يتحدّد خطّه الإصلاحي طبعا .

أمّا أوّل جريدة وطنية بخطّها الفكري و لغتها و تموينها، فكانت جريدة (الفاروق) التي أسّسها المفكر الجزائري، الإصلاحي، الصحفي (عمر بن قدور الجزائري) فصدر العدد الأول منها يوم: 18 فيفري 1913م، لتكون كما يقول صاحبها « فارقة بين الحق و الباطل، و آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر» و استمرت حتى 1915، و رد تحت عنوانها ما يلي : « جريدة إسلامية علمية اجتماعية أدبية » كما ورد على جانبها الأيسر أنّها : « إصلاحية إخبارية، تصدر كل يوم اثنين » فهي أول جريدة أسبوعية « وطنية ترتقي إلى مصاف الجرائد العربية المعتبرة، و كانت إسلامية وطنية محضة ، طالما اهتمت بقضايا المسلمين ، و حلّلت واقعهم المرير ، و التفتت بصفة خاصة إلى أحداث تركيا

الدامية ناصحة و محلّلة» [21] فوقف(ابن قدور) إلى جانب (تركيا) ضـدّ أعدائهـا، فلـم يـبال بمضايقات الاحتلال الفرنسي لذلك، و تحذيـره له، ممّا جعل السلطات الفرنسية توقف الجريدة، سنة 1915، و تنفيه إلى (الأغواط) حتى (1919 م).

إلـى جانب (عمر بن قدور) انطلق آخرون، مثل (عمر راسم) الـذي كانت له جريدة وطنية بدورها: حرفًا و فكرًا، عنوانها (ذو الفقـار) صدرت بعد (الفاروق) بشهور ، فكان العدد الأول يوم (5 أكـتوبر 1913) و علـى الصـفحة الأولى (رسم) للسيف لاعتبار أن (ذو الفقار) اسم لسيف (الإمام علي) كرّم اللّه وجهه ، لـذا سـجّل (عمر راسم) الذي اتخذ له اسما مستعارا : هو (ابن منصـور الصـنهاجي) تحـت الرسـم: النص التالي في أسفل الصـفحة : « ذو الفقار : بُعِثْت لأقتل النفاق، و الحسد، و الكبر و الشـرك، مـن قلوبهـم . . . . و أبثّ فيهم الصدق و التسامح

(21) د. محمد ناصر. الصحف العربية الجزائرية. ص : 36 .

و التواضع و الإيمان الخالص و حبّ الخير لبعضهم ، و التعاون و الاتحاد» .

إلى جانب الصحف الوطنية العربية، هناك الصحف (العربية) التي أصدرها فرنسيون، في مقدمتها جريدة (المغرب) خلال سنتي (1903-1904) التي أصدرها **(Pierre Fontana)** بالعاصمة، مرتين في الأسبوع (الثلاثاء) و (الجمعة) كما أنشأ **(Fontana)** المطبعة التي بقيت تحمل اسمه (بيار فونطانا) فعملت هذه المطبعة على إصدار الكثير من الكتب العربية، خصوصا منها المحقَّقة، كما هدفت الجريدة إلى التأثير على الجزائريين ، كي يهادنوا المحتلّين الفرنسيين ، فورد لذلك في افتتاحية عددها الأوّل ما يلي : « لا يكفي من يريد مداخلة الأمة الإسلامية و الفوز بحسن التفاتتها أن يتكلّم بلغتها فقط ، بل يجب عليه زيادة على إتقان لغتها مشاركة أفرادها في الوجدان ، و في كثير من العقليات و المعتقدات ، فالغاية المقصودة (للمغرب)

هـي السعي في التأليف بين الأهالي من سكان هذا الوطن و بين الأمـة الفرانسـوية، وذلـك بإزالة كلّ خلاف ، و بين ضرورة المعاملة بالجميل بين الأمّتين » [22] .

فاجتذبـت بضعة كتاب جزائريين من ذوي الارتباط بالإدارة الفرنسية للمساهمة فيها بأقلامهم، و أفكارهم، التي ينبغي ألاّ تكون مـناوئة للحكـم الفرنسي في (الجزائر) حيث اشترطت (الجريدة) بصـريح العـبارة أنها « لا تنشر فيها المقالات التي ترمي إلى سياسـة مقاومة أو مضادة، لأنّ ذلك يحول بينها و بين مرغوبنا المـتقدّم ذكره من إرادة خدمة الوطن و نفع الأمتين» و هذا ممّا يجعـل موضـوعاتها خافـتة اللهجـة، في مناقشة التجاوزات، و المظـالم التـي يرتكـبها المحتلون، تكاد تقتصر على الجانب الدينـي، و الاجتماعي و الأدبي، الذي يصرف (الجزائريين) عن الاهـتمام بالقضـايا الحيوية، في الميدان السياسي الفكري، أكثر

---

[22] المرجع نفسه ، ص : 26 .

انشغالا بالقضايا العامة التي لا تقدح في سياسة الاحتلال الفرنسي في (الجزائر) خصوصا، و سواها، مثل (تونس) التي غدت محتلة فرنسيا، منذ (1881 م) في انتظار الانقضاض على (المغرب الأقصى) سنة 1912 م .

فهي جريدة في جوهرها حكومية ، تزامن صدورها مع سياسة (شارل جوناز) الحاكم العام في (الجزائر) الذي عين أول مرة سنة (1903-1911) الذي حرص على التودد للجزائريين، فأوعز للسيد (فونطانا **Fontana**) بإنشاء هذه (الجريدة) لكسب ود الجزائريين، و إتاحة الفرصة للأقلام الجزائرية لتكتب ما لا يتعارض و المصلحة الفرنسية، مع إباحة (النقد) و حتى (الانتقاد) في الأمور العامة التي لا تنال من السياسة الفرنسية في (الجزائر) و غيرها . . في هذه الجريدة إذن شرع يكتب بعض من ذوي الارتباط بالإدارة الفرنسية خصوصا : أساتذة عربية و علماء دين، و من بينهم (عمر بن إبريهمات) الذي كانت له تجربة أدبية

فـــي (المقامـــة) نشـــرت فـــي حلقتين بهذه الجريدة في العددين الصادرين يومي (15.05. 1903م) و (22. 05 . 1903م) بعـــنوان (مقامـــة أدبـــية) لســـرد أخبار عن (أسفاره) في الشرق و الغـــرب، بمـــا في ذلك بلدان عربية أهمّها (تونس) و أوروبية، أهمّهـــا (فرنســـا) ففـــي (تونس) طرب طربا شديدا لالتقائه أحد فضلائها، أمّا في (باريس) فقد استاء فيها من سلوك إنسان عربي جلف أحمق يطعن في إنجازات الحضارة الإسلامية التي كان يشيد بهـــا كثـــيرون في مؤتمر استشراقي عقد هناك في (باريس) سنة (1897 م) فالمقامـــة ذات طـــابع أدبي إخباري موزعة الملامح و الهويـــة بين (الرحلة) و (المقامة) فهي تسجّل أحداث رحلات، فـــتروي ما جرى في مجالس، ففيها من أسلوب الرحلة و شكلها نصـــيب، و من إطار المقامة و أسلوبها نصيب، و قد بدا لي هذا الجانب أوضح خصوصا في بعض الجزئيات، مع العلم أن ملامح الإخبار و الترحال في فن المقامة عنصر أساسي .

و المقامة ذات موضوعين ، أحدهما عما زاره من البلدان و من لقيهم فيها من أعلام، و ثانيهما : انطباعاته عن مؤتمر (المستشرقين) الذي حضر أشغاله في (باريس) سنة (1897م) فلفت الأنظار فيه مواطن محسوب على العرب يقدح في إنجازات الحضارة الإسلامية التي أشاد بها مستشرقون أنفسهم ، في المؤتمر ذاته .

نشر الموضوع الأوّل في العدد : (11) من جريدة (المغرب) و نشر الموضوع الثاني في العدد (12) من الجريدة، و الموضوعان في النهاية متكاملان ، مع اختلاف في الرؤية الفكرية دقة و بساطة، و الأسلوب بين لغة عادية مسترسلة، مع ضعف واضح في فقرات، و لغة رشيقة تتكئ أحيانا على السجع، و الزخرف اللفظي، و لم يسند في البدء (الرواية) لنفسه ، بل دخل (الراوي) بصيغة (الغائب) مباشرة بعد الحمد لله و الصلاة على رسول اللّه ﷺ، فقال في لغة مسجوعة، تختصر محطات الأسفار،

في شبه مقدمة « حدّث من جاب الأقطار و ركب الأخطار، فنال الأوطـــار، و اقتطف زكي الأزهار و البهار من حديقة الأخبار ، و كـــان بالجزاير يرود ذلك الجيش الكرّار و ترجم أحوال الناس و رزنـــم وقـــايع الأمصـــار، إلـــى أن بلغ بتقويمه الوقايع درجة الاشـــتهار ، و بتصـــويره فكـــره الثاقـــب جامعا لحوادث الليل و النّهار.

قال: لما شرفت بتعييني عضو (المؤتمر العلمي)** الذي انعقد بباريز المحروسة في شهر سبتمبر سنة 1897 اقتضى نظري أن أقضـــي مأربـــي من الأسفار ، و أنيل [كذا] من المعارف لا يسع حملـــه الأســـفار بتصفّحي قسم السية [كذا] و البلاد التي عن مدح المـــلاح غنية، من صينها و تبتها و هددها [كذا] وعراق عجمها وعـــربها، و الشـــام و بهايهـــا، و الحجـــاز و فضلها، و اليمن و يمـــنها ، و أرض الـــروم و غـــنايها، و لا تسألني عن البحر

** إحدى دورات مؤتمر المستشرقين.

المتجمّد الشمالي و لا البحر الأصفر و لا عن بحر الصين و الهدد [لعله الهند] و البحر الأحمر، و لا عن البحر الأسود و البحيرات و الخاجـان، و لا عـن جـزر جابـان [ربما اليابان] و جزاير كارولين، و لا عن كينيا الجديدة و جزاير فيليبين، و لم يبق جبل إلا صـعدته، و أثـر قدمـي . . . . و بسرنديب قبلته و بخدي مسـحته بعـد أن زرت بيت اللّه الحرام ، و بعد أن عرفت . . . . الـبقعة التي ضمت أعضاءه عليه الصلاة و السلام، و زرت المسـجد الأقصـى ومشـهد الحسـين الذي عجايبه لا تعد و لا تستقصى .

ثـم حللت بمدينة برسة [بروسة] المحمية أول كراسي الخلافة العثمانـية و تبركت بزيارة ضرائح أولئك السلاطين الفخام عليهم مـن اللّه صحايب [يقصد سحائب] الرحمة و الإنعام، تاقت نفسي إلى رؤية نجلهم الكريم خليفة رب العالمين الذي أعزّ به اللّه الملة الحنفـية، و حرص به السنة المحمدية مولانا السلطان عبد الحميد

خـــان، فقصـــدت الأســـتانة الراضية و الجنة العالية، فلما رأيتها وجدتهـــا و اللّــــه أحسن ممّا تصفها به الألسن، و فيها ما تشتهي الأنفـــس ، و تلـــذ الأعيـــن : في جامع و مسجد معمور و درس غـــاص بالمتعلمين مغمور، و السعي مشكور، و للّه درّ من تفاعل التاريخ فتحها المشهور بقوله : « بلدة طيبة و رب غفور» . . .

هكذا ينطلق الراوي في عرض (أخبار تنقله) من بلد لآخر، فـــي الوطن العربي و العالم الإسلامي، و الأوروبي، و الشرقي، يشـــق الفيافـــي، و يخوض البحار، و يتسلق الجبال، متحديا كلّ الصعاب، و من دون أن يقول لنا كيف تمّ له ذلك، و لا كيف عبر مـــن (شـــرق) إلى (غرب) و لا ماذا فعل، فبدت التجربة خيالية خالصـــة ، لا تـــنعكس فـــيها معاناة ، و لا نجد فيها صدى لحياة مجتمعات، و لا ما كان يشد (الراوي) نفسه إلى المواقع، باستثناء هـــذه الوقفة السريعة مع ذلك في (الأستانة) لزيارة السلطان (عبد

الحميد) حيث بدت (الأستانة) فعلا« بلدة طيبة» عامرة بالمساجد، و رجال العلم الأفذاذ، و لم يزد عن ذلك شيئا.

إلـــى جانــب هذه الوقفة الأخيرة الأقرب إلى الصدق الواقعي و التاريخي و الفني معا : هناك وقفة ثانية في (تونس) فيها ملامح صـــدق ، و هـــوى كاتب . أمّا الوقفة الثالثة و الأخيرة فيتضمنها الجــزء الثانـــي من هذه (المقامة) في (الحلقة الثانية) من جريدة (المغرب) .

لعـــلّ أوّل ما يلفت النظر في الوقفة الثانية بتونس هو التصاقها بـــالواقع التاريخي يومئذ و قد مضى على احتلال (فرنسا) بتونس أكـــثر مـــن عشر سنوات، تحت إدارة مقيم عام فرنسي فيها، فبدا الوضـــع هادئـــا، و الكاتـــب راغب في لقاء أعلام سياسة و فكر و ديـــن فيها؛ فوفق إلى ذلك كما عكسته كلماته الطافحة بمشاعر الرضى والحبور التي فجّرت في نفسه شعرا في مدح أحد علماء (تونس) حلّى به في نهاية هذا القسم مقامته، و قد حدّد يوم وصوله

إلــى تونــس بمناســبة دينية هي (عيد الأضحى) المبارك؛ فقال: « دخلت تونس . . . يوم عيد الأضحى ، و تشرفت بزيارة نجل الحســينيين مولانا (علي باي) مع جلّ من أحبّاء الجزائريين ، و حضــينا بالــنظر إلــى طلعته المنيعة ، فيالها من سعادة ، ما أعظمها و أجملها ! و من كرامة ما أحسنها و ما أكملها ، و بقي فــي الخاطــر شيء و هو ملاقاة عالم علمايها المتفق على فضله و نجــده : أبــناء يافث و سام و حام منية الراغب سيدي (سالم أبــو حاجب) إذ كان غايبا عن(تونس) موجها من طرف سعادة المقــيم العام في مأمورية تخصّ تنظيم مسايل شرعية؛ فلمّا رجع و قــد بلغ الوطن في أقلّ ما يمكن من مدة السفر و قد زاده علمه وذكــاؤه مــن الالتفاتات ما لا يتكيّف بحدّ و لا مطمع فيه لأحد، حمــدت اللّــه و شــكرته إذ وفّقــه للــتقوى حتى بلغ أن تعانقنا و تصافحنا و تحادثنا و تسالمنا، أخرجت له أبياتا نظمتها صبيحة

قدومـــه السعيد، إذ كان عندي ذلك الموسم كالموسم الجديد» [23] الـــذي فجر (قريحته) بالشعر؛ فكتب في صاحبه قصيدة من ثماني أبيات منها قوله :

و قـطفنا من الأماني ثمارا　　　و رشـفنا من الأمان زلالا

نـبّأتنا بـه الشمال صبـاحـا　　　واهتـززنـا له يمينا وشمالا

فحلّـــى الكاتب بنظمه مقامته، قائلا في نهاية هذا القسم الأوّل مـــنها : « . . قـــبل منّي الأبيات و قبلها، و بين سحره و نحره جعلهـــا ، ثـــم أخذنا نتجاذب أطراف الكلام، و ما يبديه الدهر من حوادث الليالي و الأيام» فيسأله عن أخبار رحلته .

هـــذا الجـــزء الأوّل من المقامة بضمير الغائب أوّلا و المتكلم ثانيا : بدا ذا صلة وثيقة بالرحلة، مع الإبقاء على (الراوي) المعبّر عـــن تجـــربة الشيخ (عمر بن إبريهمات) و هو أحد المدرسين

---

(23) **المغـرب، جـريدة،** ع:11، **سـنة أولى، الجمعـة** 17 **صـفـر** 1321هـ/15 **ماي** 1903 ، **الجزائر.**

بمدرســـة الجزائـــر العليا التي نقلت إليها من مدينة (المدية) سنة (1859) بعد تأسيسها سنة (1850) هنالك مع أختيها المماثلتين، فـــي (تلمسان) غربا، و (قسنطينة) شرقا، لإعداد إطارات إدارية و دينـــية و قانونية ، كما تكون صلة الوصل (الأمنية) بين إدارة الاستعمار الفرنسي، و المواطنين الجزائريين .

الملاحـــظ هنا أنّ هذا الجزء من (المقامة-الرحلة) تمّ ماديا بعد (مؤتمر باريس) الاستشراقي و ما لفت نظر الكاتب فيه، و ما أثار حفيظـــته الدينـــية و القومية من سلوك اندفاعي أرعن صدر عن أحدهم للنيل من دور الحضارة الإسلامية العربية .

و قد جرّ إلى ذكر (الحادثة) حواره مع صاحبه التونسي (سالم أبـــو حاجـــب) فـــي مسار (المقامة) التي نحت نحوا بين (الحكاية) و (الخبر) فتجاذب (أطراف الحديث) بين الرجلين دفع (أبا حاجب) ليســـأل (الراوي) أي (عمر بن إبريهمات)« عن غريب الاتفاق، و ما ينكره الطبع السليم على العموم و الإطلاق» .

و هذا ما أعده (ابن إبريهمات) فنيا كمدخل مشروع لرواية تلـك الحادثـة التـي مصدرها رعونة (جاهل) و تهجّمه على إنجـازات الحضارة العربية الإسلامية، في (مؤتمر علمي) بمدينة (بـاريس) سنة (1897م) و هو الجزء الذي نشر بعد أسبوع في العـدد : (13) مـن جـريدة (المغرب) ليوم الجمعة 24 صفر 1321هـــ/22 مـاي 1903 م حيـث كتـب المؤلف بصيغة (المـتكلم) هـنا « لقيـت بمؤتمر باريز العلمي رجلا من علماء أوروبا الذين تعاطوا خصوصا العلوم و الإشارات الإسلامية ، فلو يسـعني ذكـر الـبعض منهم لذكرت لك العلامة البارع الأستاذ (باربـي دوميـناز) . . . » [24] و هو واحد من علماء (باريس) فضـلا عـن علمـاء مسـلمين و عـرب، مـن (القسطنطينية) و (مصـر) و (تونس) و (فاس) و غيرها، يشير الكاتب إلى ذلك علـى عجل، حتى يصل إلى الحديث عن ذلك (العربي) الأرعن

---

[24] **المصـدر نفسـه** ، ع:13. **سـنة : أولى . الـثلاثاء** 21 **صـفر** 1321**هـ** / 19 **ماي** 1903 .

الـذي ركـبه الـنزق، فانطلق في مؤتمر يجمع عربا و مسلمين و مستشـرقين مستخفا بالمسلمين، و العربية و علومها، فصوّره الشّـيخ (ابن إبريهمات) تصويرا ساخرا، معرضا بطبعه الجلف، و طبيعـته الوقحة، و استفزازه وتهوره ، فقال (ابن إبريهمات) : إنّـه حيـن أوشـك المؤتمر على نهايته و « أتى وقت الفراق ، و التفـت السـاق بالساق : فإذا برجل لم يعرف له إذ ذاك نسب، و لـو كان متعمما كما يتعمّم أهل جزيرة العرب ، فاستأذن رئيس اللجـنة فـي توجيه مقالة، و بدأ قائلا: أيّها السادة لا أخفي عليكم فرحـي مـن حيث تحصّل عندي أنّ لبّ فكركم انصرف إلى ما حسـنته الأمـة الإسلامية و أحسنته، و شرفته بمباحثها الفلسفية فأتقنـته ، فأقمتموه مقام الاشتهار و اعتبرتموه غاية الاعتبار، فها أنا أدحض لكم حججه، و أهدم لكم أساس بناية [كذا] . . .» .

فيتدخّل هنا (الراوي) أي (ابن ابريهمات) كشخصية واقعية معلقـا على حمقه في اندفاعه أنّ انطلق يهذي مثل « المعتوه، بل

الجاهل المخنوع . . . . صار يدندن كالسنور و يخور خوار الثور، و الناس يسمعون و جلّهم له يلعنون، فلمّا أتمّ سقمه و البزاق قد ملأ فمه : و كان قد لازمني أحد فضلاء اللجنة الأخيار، من أبناء أمجادها الأبرار اشتملت ذاته على غالب أوصاف الأدب ، غير أنّه لم يكن يعرف لغة العرب ، و كان حفظه اللّه [طلب منّي] أن أعجّم له تلك المقالة ، فلم يسعني إلا إجابته إلى ما طلب، و إسعافه فيما رغب ، و لو اطلع على الحال لما كلّفني تلك الأثقال ؛ فإن تلك المقالة عند من يعرفها لا تلمس لمسا ، و تحسب أنّها من عمل الشيطان رجس ، فمن وقتئذ اطلع على بغض مؤلفها و دسيسته للمسلمين ، و هو يظهر أنه لهم ناصح أمين ؛ فلعنة اللّه على الكاذبين ؛ فتبا لعقول تقبل منه هذا الحال، أو تصدّق هذا الجاهل بوجه أو حال ، و كنت نظنّ [هكذا] أنّه يرجع عن غيه و يقرّ بجهله و عيّه بعدما رماه فحول علم الكلام بنبل الجواب المسكت» فذكر من هؤلاء الذين تصدّوا للرد

عـــنه (ردودت) مفحمـــا، مبطنة بالسخرية والتوبيخ، مستشرقين فرنســيين، و عـــربا، و مـــن بيـــنهم (الراوي) نفسه صاحب (المقامة-الرحلة) .

ثـــم يعـــود الكاتـــب إلـــى وصـــف صاحبه، وغموض نسبه، وجنسيته ، في سياق الشرح لسائله و جاره في (الجلسة-المقامة) قـــائلا: « قـــال لي ملازمي الأديب بعدما عجّمت له ذلك البهتان الغريـــب : و حـــياتك يا خليلي ما كان قصدي أولا أن أجيب هذا الأفّاك بحرف و لا التفت إلى مقالته بطرف حتى ألزمني الجواب جماعـــة مـــن الأحباب . . . . ثم قلت : هل تعرف أصل نسبه ؟ فأجاب بلن ، و لا، و استعاذ باللّه منه على رؤوس الملإِ ، و هو كمثل هذا الديك الذي يعمر رأسه و عنقه إذا غضب ، و لا يزال هايجا على من يراه و إن دحر و ضرب ، فإنّ هذا الطاير المشوم لشـــره و عدوانـــه و شـــينه و شانه يتبرأ منه جميع الناس ، ولا يـــريدون أن ينســـبوه إلى بلادهم ؛ فترى بعضهم ينسبه إلى الهند

و بعضــهم إلــى الصــين أو السند و بعضهم إلى البلاد التركية، و بعضهم إلى الأقطار الحبشية ، و قال بعضهم أنه ينسب ... إلى (تونــس) و أهــل تونس ينسبونه إلى الجزائر ، و أهل الجزائر ينسبونه إلى (جربة) و أهل (جربة) يتبرّأون منه » .

و سرعان ما يقدم لنا الكاتب شخصية جديدة في صيغة (نكرة) هكذا (رجل) تعلن جديدا بالنسبة لهذا الدعي الأرعن، فيقول (ابن ابريهمات) : « تقدم رجل و قال : قد جرى ذكر هذا المشوم و أنا بطهــران المحمــية و سمعت شيخا يقول أنا أعرفه حقّ المعرفة، و لا يســعني أن أبيّــن لكــم أصله، و أصفه، و هو عليكم أبين و أوضـــح ، إذ كــلّ إناء بالذي فيه يرشح ، و في القوم شيخ لم يتلفظ بحرف و لا التفت بطرف : حتى إذا القوم جميعا بالصدق تكلمــوا، و بشهادة اللّه التي لا يحلّ كتمانها أعلموا ، قال لهم : يا قــوم مــا لكم أطلتم في شأن الرجل الكلام و شرحتم ترجمته بين الأنــام، و الشــمس لا تخفي على العيان ، أظننتم أنّ كلامه كلام

حتى يضر بفرد من أهل الإسلام . . .» مشيرا إلى أنّ قوى الشرّ قائمة في كل زمان و مكان ، و يبقى دائما مآلها الخسران المبين ، لوعد إلهي« يريدون أن يطفؤوا نور اللّه بأفواههم ، و يأبى اللّه إلاّ أن يتمّ نوره و لوكره الكافرون» .

لكن كاتب (المقامة-الرحلة) بدا له أن هذا الرجل الذي وصفه بالمعتوه من (مملكة باهوبال) [هكذا] و « لا شك أنّه من طوايف الاعتزال » أصدر حكمه هذا أمام صاحبه التونسي (سالم أبي حاجب) الذي أسف للموقف و الظاهرة كما عكستها تلك الشخصية الشيطانية، التي ركبها النزق « خالف تعرف» و لو عبثا و استهتارا، و وقاحة و تهريجا .

دار الحدث هنا في (تونس) في (مقام) استدرج أحداثا في (مقامات) و أخبارا كتعاليق، من رحلات، و لقاءات، و حين همّ (الراوي) الشيخ (عمر بن إبريهمات) بمغادرة (تونس) إلى (الجزائر) في نهاية هذه التجربة، حنينا إلى زوجه و أبنائه:

عــرض علــيه صــاحبه (سالم) اللقاء بعلمين تاريخيين : مادي و إنســاني، أوّلهما (المدرسة الخلدونية) في (تونس) كمعلم بارز من معالمها الثقافية البارزة في نهضتها الحديثة، وثانيهما علم فكر وتعليم ونهضة وإصلاح هو الشيخ (البشير صفر، ت : 1335هـ/ 1917م) أحد أعلام الحركة العلمية و التعليمية و الإصلاحية في (تونــس) و أســتاذ جــيل كبيرمــن أبناء العربية و الإسلام في المشــرق، و فــي المغــرب العربي ، و كثيرا ما أبدى المصلح الجزائــري الشــيخ (عــبد الحميد بن باديس : 1889-1940) اعــتزازه بالــتلمذة عليه، فذكر أن اتجاهه الوطني و الإصلاحي يــرجع الفضــل فيه إلى (الكراسات) التي قيدت عليها إملاءات أســتاذي و شيخي المباشر (البشير صفر) لما في خطه من طول نظر ثاقب، و في لغته و منطقه من لغة صدق و حب و إخلاص، لخدمته أمته العربية الإسلامية .

بـــتلك الإشـــارة الثقافية (للمعلَم) و (العلم) ذات الدلالات المختلفة المهمة، يختم (عمر بن ابريهمات) تجربته (الأدبية-الفكرية) في موقفـــه مـــع صاحبه (سالم) المثقف السياسي هكذا :« لما أردت الوداع منه طلب منّي أن أزور صحبته المدرسة الخلدونية ليقدمني إلـــى مدرســيها الفخام، فنهضنا في الحين، فكان رئيس مدرسيها و مديرها الأديب اللبيب سيدي البشير صفر ، فأطلعوني على نمط تعلـــيمهم و النـــتائج التـــي حصـــلت من ذلك ، من يوم اختطاط المدرســـة . و بعد تمام الدروس جمعنا الشيخ بداره ، و لم نزالوا [هكـــذا : بـــدل لم نزل] في بسط [هكذا] و انشراح ، إلى أن أقبل الصـــباح ، فشـــاق [كـــذا] إذ ذاك خاطـــري إلـــى رؤية الزوجة و الأولاد ، و قـــدم معي إلى مكينة البخار [القطار] شيخنا» (سالم أبي حاجب) .

تجربة (ابن إبريهمات) ارتبكت أدبيا، لا في أبطالها فحسب، بل فـــي جنســـها، فبيـــنما الكاتب يعلن أنّه يكتب (مقامة) فيها (راو)

و (بطـــل) و (جمهـــور) مفترض، يستمع، أو يصغي لما يروى، و فيها سجع ، و محلاة بشعرْ و نظم ، و آيات قرآنية ، و أحاديث نــبوية ، فــإنّ ظـــلال (الرحلة) بقيت فيها شاخصة لا بالمسار الإخـــباري فحسب ، بل حتى في الشخصيات (الواقعية) و في إعلان المواقف الإصلاحية مباشرة، مع اهتمام بالرموز السياسية الدينـــية خصوصـــا، في (تونس) و (تركيا) ذاتها، من خلال ثناء على السلطان (عبد الحميد خان / الثاني) .

لكـــنّ الكاتـــب مصـــرّ علـــى اعتبار تجربته (مقامة) لبعض المســـوغات ، الفنـــية و الفكـــرية، في إدارة الحديث، على شكل (راويـــة) و (بطل) و إن بشكل مهتز، و في فعل (البطل) ذاته حيـــن يـــنهض بدوريـــن معا (البطولة / و الرواية) حين يقدمه كشخصـــية مغامـــرات فذة، جابت الأقطار و ركبت الأهوال في أعالي البحار، كما جازفت في أعالي الجبال ، متلمسة طريقها بين

مختلف الأقوام ، فما تركت قدمها موقعا إلا وطأته ، و لا قوما إلا عرفتهم .

كــلّ ذلك ورد تعميما، في شبه سرد و تعليق ، من دون تحديد مضــبوط للمواقــع، بحارا ، و جبالا ، و لا تقديم صورة ما عن مجــتمعات احتك بها ، و تفاعل مع الحياة فيها ، فهو هنا موزّع الاهــتمام بين خيال (يمتطيه) و واقع يسجله ، لكنّه ذكر كلّ ذلك و هــو علـــى عجلـــة من أمره ، بقي فيه وجدانيا : أكثر ارتباطا بفضاءات علمية، و رجال علم و تربية، و علماء دين، مع حرص في كل ذلك على الصياغة الأدبية، و مراعاة السّجع غالبا حرصا على التأثير في المتلقي، و توفير المتعة (الفكرية) و (الفنية) له .

و قــد حرصت على إثبات معظم فقرات هذه التجربة لما تعبّر عــنه مــن مســتوى المرحلة أدبيا أوّلا، و لما تعكسه ثانيا : في العلاقــة بيــن (غــرب) مســتعمر، و شرق عربي محتل، ثقافيا و سياسيا و دينيا و (إستراتيجيا) من الناحية الاستعمارية في كلّ

الحالات، و ثالثا و أخيرا : لجعل هذا النص في متناول (الباحثين) وقد بات الوصول إليه متعذّرا ، أو مجهدا جدا بدنيا ونفسيا و ماليا .

و التجربة إذن بكلّ ظلالها تبقى من الحقول الخصبة في هذه المرحلة مع أواخر القرن التاسع عشر و مطلع القرن العشرين، لا في الجانب الأدبي الفكري الخالص فحسب، بل أيضا في الجانب السياسي و الديني، و الاجتماعي، كما أنّها في عمقها تبقى وطنية قومية لما عبرت عنه من موقف للشيخ (عمر بن إبريهمات) دفاعا عن أمته، و لغتها، و مهاجمة خصومها، و أخطرهما وأنذلهما خصوم الدّاخل ، فالخصم الخارجي واضح معروف ، أمّا الخصم الداخلي ، من الوطن العربي أو العالم الإسلامي فهو أخطر و ألعن ، حين يبيع نفسه و دينه للعدوّ و للشيطان ، فيصير عونا للأجنبي على أمته و وطنه : فكريا و حضاريا، و هي أنذل صور العمالة، و أقبحها، تجعل العميل في الدّرك الأسفل من القذارة،

مصدر سخرية ، و هو يقف في صف الأعداء : يحارب لغة أمته، و دينها، و انتماءها الحضاري، هو سلوك النفوس الضعيفة، و قد فتك بها الجهل و الفراغ الروحي الرهيب !

لقـد بـرزت محاولـة (عمر بن إبريهمات) في إطار فكري، بملامـح إصـلاحية ، تطـرق موضوع (الصراع الفكري) بين حضـارتين ، حضـارة مغـزوّة تكـاد تستسلم لقدرها التعيس، و حضارة غازية شرسة نجحت إلى أبعد الحدود في جعل (نماذج بشـرية) ذات اسـتعداد للانسـلاخ عن أمتها ، و انتمائها : لغة و عقيدة ، لتكون بفكرها وسلوكها في النهاية عونا للغازي المحتل علـى وطـنها وجـودا و انـتماء حضاريا ، و مواطنيها : قيما و مبادئ، فاقتضى الموضوع أن تكون المقامة موضوعا مباشرا ، بطابعـه الخطابي الصحفي التعليمي ، للتعبير عن موقف و رأي: من موقف سلبي رآه الكاتب ضارا بالأمة و الوطن .

فالــتجربة خطــوة أولــى في هذه الفترة المتقدمة من (الأدب الإصــلاحي) و لا أقول (الفكر الإصلاحي) لأنّ لهذا الأخير سبقا فــي مواجهــة الاحتلال منذ (1830) بينما النّص الأدبي النثري الفني الخالص، قد تأخر عن ذلك، خصوصا بهذا الشكل .

فكانــت تجــربة (ابن إبريهمات) إسهاما أدبيا رغم مباشرتها ، و نزعــتها الخطابــية، و ســماتها التعليمية، التي لا تجردها من مــنحاها الإصلاحي ، الفكري الذي نحاه الكاتب ، رغم ارتباطه (الوظيفــي) بإدارة الاحتلال الفرنسي ، التي شرعت منذ مطلع القــرن العشــرين توطّــن نفسها على تقبّل الأفكار التي لا تتجه مباشــرة لــتهديد وجودهــا في الجزائر ، أو التشكيك في موقعها و دورها، و أهميته ، الأمر الذي كان يدركه الكتّاب الجزائريون المرتــبطون بالإدارة الفرنسية ، أمّا الكتاب غير المرتبطين بهذه الإدارة ففضــاء الحــركة لديهم أوسع بكثير ، و قد مضت الأيام تــزيده اتســاعا، و حيوية ، خصوصا بعد نهاية الحرب العالمية

الأولى في مختلف الأنواع الأدبية ، فماذا هنالك من هذا النوع الأدبي في هذه المرحلة، خصوصا ابتداء من عشرينات هذا القرن العشرين ؟

لقد أسفرت (الحرب العالمية الأولى) عن نتائج مهمة، جعلت (الحركة الوطنية الجزائرية) تتقدم خطوات أخرى سياسيا و فكريا ، كما شرع يتسع المجال أمام الصحافة الوطنية العربية، و الأقلام الجزائرية فيها ، في مناخ شهد (حركة الأمير خالد : 1920 – 1922) و (نجم شمال إفريقيا : 1926) و (جمعية العلماء : 1931) التي بكّر رئيسها (ابن باديس) منذ العشرينات لتأسيس الصحافة الوطنية .

فكانت هذه الصحافة الوطنية العربية وسيلة دفع قوي للحركة الفكرية ، و رافدا أدبيا برزت فيه عدة أعمال أدبية ، في فن المقامة نفسها ، و من بين الصحف التي أسهمت في نشر هذا النوع الأدبي، جريدة (النّجاح) بقسنطينة ، لمؤسّسها الشيخ (عبد

الحفيظ الهاشمي) سنة (1919 م) التي كانت تصدر ثلاث مرات فـي الأسـبوع ، و استمرت حتى سنة (1956) مع توقف خلال الحـرب العالمـية الثانـية ، بين (1939) و (1945) ظهرت أسـبوعية، ثمّ يومية في النهاية، و هي « الجريدة العربية اليومية التـي ظهـرت في القطر الجزائري قبل الاستقلال، و تعدّ أطول الجـرائد العربـية الجزائرية عمرا و أحسنها إخراجا»[25] تفتح صـفحاتها لمختلف القضايا : شعرا و مقالة و سواهما، ورد تحت عـنوانها أو اسـمها أنّها (جريدة حرة) تبحث في شؤون « العلم و الديـن والتهذيـب و الأدب و السياسـة» انطلقت إصلاحية ثم اعـترى خطواتهـا تذبذب كبير بفعل العامل التجاري في النشر، و تحاشـي التصادم مع سلطات الاحتلال الفرنسي، لكنّ صفحاتها بقيت منبرا للكلمة الأدبية، و عليها صدرت مقامات الأديب (محمد الصالح خبشاش) المولود سنة (1904 م) بولاية (قسنطينة) حيث

(25) د. محمد ناصر، الصحف العربية الجزائري، ص : 43 .

توفي سنة (1941 م) بعد وفاة أستاذه (ابن باديس) بنحو سنة، أما مقاماتــه (زفرات القلوب) فقد نشرها بجريدة (النّجاح) خلال سنة (1927 م) فــي شهري (فيفري) و (مارس) تحت العنوان العام الســالف الذّكر ، مع تردّد غير سليم في اختيار الراوي بالمقامات الذي يحمل رؤية الكاتب فنيا و فكريا ، أوّلا و أخيرا .

بــدأ الكاتب في نشر مقاماته بالعدد (406) من (النجاح) ليوم الجمعة 8 شعبان 1345 هــ / 11 فبراير 1927، و انتهى منها فــي العدد : (422) ليوم الأحد 16 رمضان 1345 هــ / 20 مارس 1927 م .

لكل (مقامة) في العدد عنوان جديد، تحت العنوان العام الملازم لكل الحلقات (زفرات القلوب) أمّا توقيع هذه الحلقات فهو في حلقة باسم (سطيح) بطل مقامات (حافظ ابراهيم : 1871-1932) في (ليالــي ســطيح) و فــي حلقة باسم (الحارث بن همام) الرحالة

المــتعفف الــراوية فــي مقامات الحريري (446-516 هـ / 1054 - 1122 م) فكلا الاسمين مرتبط بنوع (المقامة).

وقّع الكاتب الحلقة الأولى باسم (الحارث بن همام) الذي نهض لــزيارة مدينة (قسنطينة) في (الجزائر) بحثا عن (الشيخ سطيح) و وقّــع الثانية باسم (سطيح) و قد زاره في ليلة شتوية (الحارث) يدعــوه للقــيام برحلة، و هكذا مقامة بتوقيع (الحارث) و أخرى بتوقــيع (سطيح) بدأت في (الحلقة الأولى) في الجريدة بالحارث، و انتهت بالحلقة الرابعة عشرة : بسطيح.

كانــت الحلقــة الأولى أشبه بتمهيد، عنوانها الفرعي (إلى من أكتب) ؟ لائحا باللاّئمة على الوضع الثقافي الراكد، حيث انصرف الــناس إلى التكالب على الكسب المادي، فآثر (الحارث بن همام) أن يمــارس الــرحلة بحــثا عن الحق، و إدارك أسرار الكون : « جبــت في الأقطار، من قطار إلى قطار، و بابور [باخرة] إلى بابور، حتى وطئت قسنطينة المنيعة، فسألت أحد الساكنين بها عن

شيخ يدعى (سطيح) أحد كهان أمة مضت، فتعلمت و ترقت» (26).

فأرشده إليه « في خانه...يقرأ الحكمة و يجلي منها ما راق و دقّ....ذهبت إليه مسرعا و بيدي هذه العريضة، فسلمت عليه، و قدمتها له، و إذا هو يرتّل آيات التبجيل و الإكرام و يخبرني بأشياء لم تك قط في مخيلتي...فأصغيت إليه هنيهة ما و أنا مطرق برأسي ثم استأذنته بالخروج، فأذن و قال: سأجيبك و أحقّق لك بإذن اللّه ما تفتش عنه في طالع عنوانك، و اللّه يكلأ الجميع » .

تنطلق هذه المقامة إذن من ظرف فيه ضيق (الراوي) بركود في الحياة الثقافية، فاتجه نحو (قسنطينة) و معه (عريضة) لم يكشف عن مضمونها الذي يطلب له إجابة من الشيخ (سطيح) فلا يبادر، بل يتريث و يعده بالإجابة كتابة بالبريد.

(26) **جريدة (النجاح) ع : 406، الجمعة: 8 شعبان 1345 هـ / 11 فبراير** 1927 م.

و يبدو ضيق (الراوي) في الحلقة الثانية بمحيطه، فكان عنوان الحلقــة (عجائــب الأقــدار) التي جعلته يعيش واقعا تختلف فيه الأهــواء و تتصادم، كما تتباين المشارب و العقائد و اللغات، فهو مكــروب لــتخلف محيطه، و حياته « بين شعب تعددت مذاهبه، و تنوعت مشاربه و تطورت أزياؤه، و اختلفت لهجاته، هذا يلفظ بالضــادين دالا» و غــيره عل العكس منه، كما أن هناك من هو «مــن أصحاب الطربوش [و آخر] من ذوي العمامة و البرنوس، و هذا يعبد الأوثان، و ذاك يؤمن بالرحمان، و آخر يرفض جميع الأديــان، و الأكــثر لا يعــرف مــن العالم أجمع سوى الدرهم الرنان» [27] .

هــذا الواقــع الذي بدا موبوءا جعل الراوي يلوذ بعزلة، حتى اقــتحم علــيه ذات لــيلة عزلته حلم يوقظه من نومه « سطيح، سطيح، قم » حين سمع طرقا على الباب، و لم يكن الطارق سوى

[27] **الــنجاح** ، ع : 409 ، **لــيوم الجمعــة** 16 **شــعبان** 1345 **هــ** / 18 فـبراير 1927 م .

(الحارث بن همام) الذي جعل « الدهشة الكبرى و الحيرة العظمى » تستولي على (سطيح) و هو يصغي لزائره ، يحدثه « عما لاقى في الأسفار من عجائب الأقدار، و عما سمع في الأمصار من طرائف الأخبار، فأزال عنّي الهموم و الأتراح، و جلب لي المسرّة و الانشراح، فتمنيت في خبايا الضمير أن يكون لي قريبا، و على نائبات الدهر معينا، و بعدما ملك قيادي و سلب بريق مقوله فؤادي ألحّ عليّ أن نتّحد معا و نكتب مقالات رنّانة....يبلغ صداها إلى المشارق و المغارب، و نأتي فيها بالعجائب و الغرائب، فلبيت الطلب، و عوض أن أقول : لا، قلت نعم، فإلى الأمام يا بن همام».

و هكذا يأخذ (الحارث) منه الدور، محليا حديثه بالشعر، كشأن كلّ كتاب المقامات، من دون نسبة، معلنا قوله «في رأسي عقل و في يمناي قلم» [28] اندفع بهما إلى الحياة، في المدينة، فقال :

---

[28] النجاح، ع: 410،ليوم الأحد 18 شعبان 1345 هـ/20 فبراير 1927م.

« خرجت ذات يوم لأروح النفس من العنا ثم أرجع بها إلى حيث السكنى، إثر الرجوع حدّثتني المشؤومة بالطواف على أنهج المدينة؛ فقطعتها نهجا نهجا، على حين المرور...بحارة عربية، إذا بضجيج يطرق سمعي، فالتفت حولي، ثم هو يعاودني أذني، فعدت نفسي [كذا] و قلت ما هذا ؟

أجابت: ألم تعلم ما هذا إلى حدّ الآن ؟ هذا مكتب قرآني، يتخرج منه كل عام سواد، و أيّ سواد، و من حوضه نهلت بعض الصدور العظام؟! فكان منهم القاضي الشهير، و المدرّس النّحرير، و السياسي الخبير، و الكاتب الخطير.

أكبرت أمره، و أسرعت بالدخول إليه خببا، دخلته فوجدته مكتضا بصبية ملتفين بسيدهم التفاف الهالة بالبدر، و السوار بالمعصم، فحييت جميعهم، و دنوت من سيدهم الهمام.

بعد الخوض في الحديث، و رشف كأس المداعبة أخذت مقعدا لي في زاوية منه لأرى ماذا يجري من سنن التعليم و النظام

لهؤلاء الصبيان الذين هم أبناء زمننا و مفخرة شعبنا الكريم، يوم الزحف على أولي المكر و الطغيان.

بيـــنما أجــيل الطرف في توقد الذكاء....شاهدت طريقا وعر المســالك، لا يشّــقّ لها غبار، و لا ينجو منها فار، فبعدت على شــقتها و لـــم أستطع وصفها، لكن على رغم المتاعب و اقتحام المصـــاعب أظهــرها للعــيان، ألا و هـــي طريقة التعليم العقيم بمكاتبــنا» التـــي تقوم على الحفظ من دون فهم، فتتبدّد الأعمار ســدى، بدل أن تنفق حيوات الناس في الفهم الصحيح لكتاب اللّه و الأخذ من معارف العصر.

فــبهذا أنطق (صالح خبشاش) راوي مقامته و بطلها المعاصر (الحارث بن همام) الذي يقترح علينا نهجا تربويا جديدا لم يفصح عــنه، بقدر ما عاب علينا نهجا تعليميا عقيما ينطلق من الكتاتيب القرآنية، يقوم على الحفظ و التلقين، ليس غير.

ثـــم ينســـحب مفســـحا للسيد (سطيح) الشخصية التي قاسمتها الأدوار، فـــيردّ علـــيه في (المقامة) التالية، قائلا: « مهلا، على رســـلك يـــا بن همام ؟ أتنكر عقائدنا وعوائد آبائنا الأوّلين »[29] و هـــو ضـــرب مـــن (الهمز) الاجتماعي، و الغمز الإصلاحي، موعزا بوجود محيط رافض للتغيير و التطوير، فيرى أخذ بعض البلدان العربية و الإسلامية بالمناهج الحديثة زيغا، لكن (سطيحا) ســـرعان ما يقرّ لصاحبه (ابن همام) بسداد التفكير : « تيقنت أن لصاحبي الحارث بعض الحق فيما يقول» لذا يدفعه للإمعان فيما بـــدأه سابقا ليكمله في المقامة التالية، و قد خرج يسير «الهوينى بين مروج زاهرة و مياه متدفقة» [30] حتى انتهى أخيرا إلى أحد المســـاجد فـــي المدينة، حيث وجد «زمرا من طلبة العلم، منكبين

---

(29) **الـــنجاح**، **ع**: 411 ، **لـــيوم الأربعـــاء** 21 **شـــعبان** 1345 **هـــ** / 23 **فـــبراير** 1927 **م** .

(30) **الـــنجاح**،**ع**: 412 ، **لـــيوم الجمعـــة** 23 **شـــعبان** 1345 **هـ** / 25 **فـــبراير** 1927 **م** .

علـــى اســـتقراء مســـائل الـــدروس، و المطالعة في الطروس، فاستعلمتهم عن المنتصبين لخطة التدريس، فأجابني أحدهم و (كأنّه يفهـــم) علـــيك بســـيدي فلان ينصحك نصحا تاما» ثم (فلان) ثم (علان) «فشكرته و أدخلت قدم رجلي في نعلي، و ذهبت لهؤلاء ....فأمّا الأوّل فوجدته مجهدا فكره في تصريف (كان) و إعراب (قـــام زيد)»... فبدا له أنّ العملية التعليمية غارقة في الاجترار، و التقلـــيد و الـــتكرار المميت، فحملت (المقامة) رؤية (خبشاش) لضرورة الإصلاح في العملية التربوية، عبر شخصية (الحارث) الـــذي لـــم يكد يفرغ من عجبه و عتبه و ضيقه بمناهج التدريس المتبعة، حتى التفت إلى صاحبه (سطيح) يستزيده ممّا في جعبته، مـــن أخبار، بما فيها رأيه في (الشبيبة) يومئذ، فيجيبه صاحبه أن «الشـــبية التـــي رضعت أثداء الكليات الكبرى، و الليسيات، فلا رجـــاء بقـــي لنا فيهم، لكونهم أصبحوا من غيرنا مخالفين لنا في

العوائـــد و كثير من المقاصد، أمّا الشبيبة التي تشبعت من مناهل العربية و حرمت اللغة الفرنسية فهي التي عليها المعوّل» [31].

ثـــم يعلـــن (الحـــارث) فرحته صحبة رفيقه (سطيح) بالربيع بمـــنظره « الفـــتان سبى مقلتي أنا و رفيقي سطيح، بتنا و باتت عيوننا تراقب الجوزاء » [32].

ثـــم تنتهـــي بهما الجولة إلى (غار) رأيا فيه شبحا، بشريا، قد أحرز « الشهادة العليا في المكر و الخداع » [33] و هي رؤية في واقع الدجالين، حتى في قمصان الدين، كما حمل الكاتب شخصية (سطيح) هنا هذه الرؤية.

ثم يعلن (الحارث) حضوره لصلاة الجمعة، صعد فيها الخطيب المنـــبر، و فـــي يده اليمنى عصاه، و في الأخرى ورقة « عظم حجمهـــا و كـــثر لفظها و قل معناها...و قال : أيّها النّاس أقيموا

---

(31) **النجاح، ع:** 413.**ليوم الأحد** 25 **شعبان** 1345 **هـ.** /27 **فبراير** 1927م.

(32) **النجاح، ع:** 415. **ليوم الجمعة** 30 **شعبان** 1345 **هـ.**/4 **مارس** 1927م.

(33) **النجاح، ع:** 416. **ليوم الأحد** 2 **رمضان** 1345 **هـ**/6 **مارس** 1927 **م** .

الصّلاة، و آتوا الزكاة، صوموا رمضان، حجوا البيت الحرام.... فما بال ساداتنا الخطباء يكررون أقوالا محكية مرت على تدوينها قرون »[34].

فالــرؤية النقدية الإصلاحية شملت المناهج التعليمية، و الدينية فـــي المســـاجد نفسها، و قد باتت الخطب فيها صيغا محنطة، لا تبعث في الناس حياة تنير طريقهم نحو الخير و الحق و الفضيلة بلغة جديدة، و رؤى متطورة.

ثم صور لنا (سطيح) قضية الخلاف عن بداية (شهر رمضان) فـــبدا هناك شيء من اتفاق ما غير منطقي على اعتبار أن يوافق الفاتح من سبتمبر « كلّ سنة على الدوام »[35] فأورد ما دار في الموضوع من حوار مبتذل.

---

[34] النجاح، ع: 417،ليوم الأربعاء 5 رمضان 1345 هـ./ 9 مارس 1927م.

[35] النجاح، ع: 418 ، ليوم الجمعة 7 رمضان 1345 هـ. / 11 مارس 1927 م

ثـــم ينتهـــي (الحارث) إلى أن الشعب الجزائري نفسه خضع للاســـتبداد غارقـــا في طلب اللذات، و « تعاطي الموبقات» [36] فيطلـــب من صاحبه (سطيح) الانتقال إلى عالم« مرسح التمثيل، و يكـــون ملتقانا في الليل » افستجاب صاحبه (سطيح) الذي أعلن فشـــل (التمثـــيل) و (الممثلين) لأنّ « فن التمثيل مبني على إتقان اللغة و الحركات ، و قد أخلّوا بكليهما » [37].

و لا يـــتأخر (الحارث) في الحلقة التالية للإدانة، حين عَرَّضَ بالفـــرقة التـــي« هدمـــت....القواعد النحوية، فرفعت المنصوب، و خفضت المرفوع » [38].

و أخـــيرا يغامر (سطيح) فيدعو صاحبه (الحارث) إلى نزهة ليلـــية للتفرج على الطبيعة، و السماء و نجومها، حتى انتهى إلى

---

(36) **النجاح**، ع: 419 ، **ليوم الأحد** 9 **رمضان** 1345 **هـ.** / 13 **مارس** 1927 م .

(37) **النجاح**، ع: 420 ، **ليوم الأربعاء** 12 **رمضان** 1345 **هـ** / 16 **مارس** 1927 م .

(38) **النجاح**، ع: 421 ، **ليوم الجمعة** 14 **رمضان** 1345 **هـ** / 18 **مارس** 1927 م .

آذانهمـا خصـام، و جدل منحط في لغته و أفكاره، فأعرضا عن البحث في كنه مضمونه، مكتفين بصحبة الليل و جلاله، و ضياء الـنجوم و سـحرها حـتى « مد الفجر أسلاكه اللامعة، فاختفى (سـهيل) و أقبل النهار ومضى الليل، فأبنا إلى المدينة، و نفوسنا مملوءة موعظة و عبرة» [39].

و بهـذه الخاتمة على لسان (سطيح) تبرز النزعة الإصلاحية التعليمية، و هي نزعة تنشد مجتمعا صحيا، مستقيما في علاقاته، فـي سـلوك أفراده و تمدنهم، فضلا عن الرؤية الإصلاحية في التعلـيم، و الخطب المسجدية، التي عليها جميعا أن تتخلص من القوالب الجاهزة المجترة.

و رغـم نشـدان الكاتـب قالب (المقامات) في عمله هذا أي (زفـرات القلـوب) فقد توزعها أكثر من نوع أدبي، و هو يلقي بظلالـه عليها : الحكاية، و الخاطرة، و المقالة القصصية، رغم

---

[39] **الـنجاح**، ع: 422 . **لـيوم الأحـد** 16 **رمضـان** 1345 **هـ** / 20 **مـارس** 1927 **م** .

إصـــرار الكاتـــب عليها كمقامة أو كمقامات بقي ثابتا في الإلحاح عليه، عبر شخصيتي (مقامتين) تاريخيتين، و عبر الصياغة نفسها التـــي لـــم يـــنجح فـــيها دائما، فلم يتخلص تماما من أسر المقال القصصي، مع نزوعه الإصلاحي، و انجذابه لجوانب من مظاهر الطبـــيعة، لـــيلا أو ربـــيعا، أو حتى في الحياة اليومية الصاخبة بالمديـــنة، و قـــد أعطى الكاتب كل حلقة من هذه الحلقات الأربع عشـــرة عـــنوانا، تحت العنوان القار (زفرات القلوب) فكانت تلك العناوين على النحو التالي، أعرضها لإفادة الباحثين، و لما لها من دلالة فكرية و إصلاحية أيضا، مبتدئا بأوّلها : 1- إلى من أكتب. 2- عجائـــب الأقدار. 3- على حين المرور. 4- مجون الأبناء. 5- من قمة منارة. 6- في عالم الرؤيا. 7 -جاء الربيع. 8- ما أجملـــك يا غار! 9- حضرت الصلاة . 10- الهلال و الناس. 11-مـــاذا دهـــاك ؟ 12- الســـرك والتمثـــيل والتحية للمدير. 13- في المرسح. 14- موعظة واعتبار.

فالــرؤية الإصلاحية الوطنية جلية لدى (صالح خبشاش) في إدانــة الــتخلف عموما، و الركود و الاجترار في أساليب التعليم التقليدي، و في خطب المساجد نفسها، فصاغ ذلك عبر شخصيتيه الأساسـيتين المسـتمدتين مــن نفــس الإطار المقامي، شخصية (الحــارث بــن همــام) من (مقامات الحريري) قديما وشخصية (ســطيح) من مقامات (حافظ ابراهيم) حديثا، فحمّلهما الكاتب معا وجهة نظره، تنازعه أكثر من شكل أدبي، ألقى بظلاله عليها، فبعد السـمات الأساسـية للمقامة أبطالا، و حدثا، من دون أدنى نزوع للاحتــيال أو الشحت: هناك سمات الحكاية المبسطة من دون أي عنصر للتعقيد أو التكثيف كما أن هنالك سمات (المقالة القصصية) التــي تعــتمد القص لكن بلغة مباشرة، لم تحفل بسجع كثير، بل كانــت الجمــل المســجوعة تأتي عفويا تقريبا، من دون افتعال واضح، و لا تقعر لغوي أو تعبيري، فلم ينشد الكاتب غرابة لفظ، و لا شــوارد لغــة، و لا تصيّد إشارات و رموزا، فهو إن أفسح

أحـــيانا المجـــال للســـجع بمرونة تامة، فإنّه من دون مبالغة و لا افـــتعال، فعـــالج قضايا سياسية و ثقافية و اجتماعية و فكرية من زاوية إصلاحية، فبقدر ما كان على ضيق كبير ممّا تعجّ به الحياة و عـــالم الـــناس مـــن (نشاز) و بعض الفروق التي سَبَبُها القيم الأوروبية الوافدة، كان أيضا ساخطا عن التخلف الذي يقعد بالناس عن التطور، فيجنح بهم إلى الجمود، فبصرف النظر عن الفروق فـــيما يـــرتدي الناس هناك البون الشاسع بين ذوي القيم المادية، و القـــيم الروحية، معرّضا بذلك قائلا « هذا يعبد الأوثان و ذلك يؤمـــن بالـــرحمان، و الآخـــر يرفض جميع الأديان، و الأكثر لا يعرف من العالم سوى الدرهم الرّنان» .

و مـــن هـــذا المـــنطلق ذاته يسخر من الإصرار على أساليب التعلـــيم التقلـــيدية فـــي التعليم الوطني، الذي لا يضمن النّهوض المرجوّ لشباب يتطلّع إلى التغيير و الإصلاح و التحرير الوطني، مـــثلما يســـخر بأسلوب مباشر من ركون أمة إلى السلبية و لجوء

خطـباء إلــى أشكال باردة في خطبهم التي غدت صيغا محنّطة مخاطبا الخطباء، قائلا عنهم: « يكررون أقوالا محكية مرت على تدويـنها قـرون، و كثـيرا ما شاهدنا من المصلين جلبة السّعال و كثرة النعاس ، لكونهم لا يفهمون ما تقولون» .

فالموقف الإصلاحي فكريا و اجتماعيا وحتى حضاريا، و اضح فــي لغــة الكاتــب و أسلوبه المباشر، فدعا إلى الأخذ بأسباب التطور، مع الحرص على الاحتفاظ بالشخصية الوطنية و مظاهر الانــتماء لها لغة و فكرا، مؤكدا موقفه، داعيا بإصرار للنهوض و التوعــية، رغـم يأســه مــن هؤلاء الذين درسوا في الكليات و الثانويات الفرنسية، و قد صاروا ينظرون بازدراء لمواطنيهم، فيعادون لغتهم و حضارتهم، و لا يختلف في السلبيات عنهم أولئك الذيــن أخــذوا « شيئا زهيدا من العربية و طرفا من الفرنسية » فحالهم كحال (الغراب) حين أقدم على تقليد (الحمامة) في مشيتها، فأضاع شخصيته، و لم يفلح في تقليده .

و هكذا تبدو النزعة الإصلاحية ذات وجوه مختلفة لدى الأديب (محمد صالح خبشاش) في فترة بدأ فيها ازدهار (المقالة) في النثر الجزائري الحديث بعد الحرب العالمية الأولى ممّا أمدّ نوع (المقامة) بعناصر الحياة، فشاركتها في الموضوعات و القضايا، و اقتربتا من بعضهما حتى في الأسلوب نفسه.

و من الكتاب الذين طرقوا فنّ (المقامة) في الأدب الجزائري خلال القرن العشرين أمير البيان (الشيخ محمد البشير الابراهيمي) المولود سنة (1889م) المتوفي سنة (1965م) لكنّه كان طرقا أدبيا في شكل تحية حمّلها « لصاحبين من تصوير الخيال أو من تكييف الخيال، تمثّلهما الخواطر تمثيل صفاء، و تقيمهما في ذهني تمثال وفاء » [40] كما قال بنصّ عبارته.

و أصل (الموضوع) تأبين (ابن باديس) في الذكرى الأولى (1941) من وفاته (1940) بهذا النّص الذي أرسله إلى رفقائه

---

[40] **محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، ص: 656، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، من دون تاريخ.**

و طلبـته فـي (قسـنطينة) من منفاه في (آفلو) بالجنوب الغربي الجزائري، فأطلق (الشيخ الغسيري) على التجربة اسم (مقامة في رثـاء الإمـام ابـن باديس) كتبها (الابراهيمي) سنة (1941م) و أرسلها، و لم تنشر في جريدة (البصائر) التابعة لجمعية العلماء إلاّ فـي العدد (76) سنة 1949م ، فنشرت بعدما حذف الكاتب مـنها (كثـيرا) ممّا لم تكن الظروف تسمح بنشره تحت الاحتلال الفرنسـي يومـئذ، و هـو يحكم قبضته أكثر من ذي قبل ، بعد الإفراج عن (الابراهيمي) في ظروف ما بعد أحداث (ماي–جوان 1945م) لـذا عـنونها الكاتـب هكذا :« مناجاة مبتورة لدواعي الضـرورة » و هي مناجاة لقبر صاحبه (الشيخ عبد الحميد بن بـاديس) رحمـه اللّـه ، قائلا : « سلام من أصحاب اليمين ، و غـيوث مـن صـوادق الوعـود، لا صوادق الرعود . . . . و سـوافح مـن العـبرات تنحلّ عزاليها ، و لوافح من الزفرات تسـابق أواخـرها أواليها ، على الجدث الذي التأمت حافتاه على

العلم الجمّ، و الفضل العدّ .... و سلام على مشاهد كانت بوجوده مشـــهودةً ، و علـــى معـــاهد كانـــت ظِلال رعايته وتعهّده عليها ممدودة ، و على مساجد كانت بعلومه و مواعظه معمورة» .

فقـــد بدت التحية واضحة بين (المرسِل) و (المستقبِل) تستدرج المكان الذي كان مغمورا بالعلم الخالص ، و العمل الدؤوب ، من (ابن باديس) و زملائه ، و طلبته .

فكـــان ذلـــــك أشـــبه بمشـــاعر عامة للتقديم، كي يـــتَخَـــيَّلَ صاحبين له، من إبداع (مخيِّلَتِهِ) يتهيآن لاستقبال أوامر ، و حمل خواطـــره ، فشـــرع يخاطـــبهما بلغةٍ رَاعى فيها سجْعه الخفيف اللطـــيف ، و رشاقةَ عبارتِه ، رغم بعضٍ من غموضٍ في كلمته التـــي لا تـــبقى قلقـــة كثيرا، في إطار الصورة المختارة، فقال : « بكّـــرا صـــاحبي فالنجاح في التبكير ، و ما على طالب النّجح بأســـبابه مـــن نكير ، تنجحا لصاحبكما طيةِ ، و لا تبلغ إلاّ بشدّ

الرّحْل و بتقريب المطية ، فقد خُتمت – كما بُدِئتْ الأطوار بدولة الرّحال و الأكوار » .

« سيرا على اسم اللّه في نهار ضَاحْ، و فضاء مُنْساحْ، ضاحك الأسرّةِ وضّاح» .

« سيرا روحي فداؤكما ، من رضيعَيْ همةٍ و سَليلَيْ مُنجِبَةٍ من هــذه الأمــة، و أتَــيَا العُدوة الدُّنيا ، فثَمّ المُنتجع و المراد، و ثمّ مَــناخُ المطايــا ، على حُلاّلِ الحقّ ، و جيرة الصّدق، و عشراء الخلــود الذين محا الموت ما بينهم من حدود. و خصّا القبر الذي تضمّن الواعيَ السميع ، و الواحد الذي بذّ الجميع » .

فيدعــو الطــيــفَيْن الخــيالــيين ليــنــوبــاه في وقــفــة عن قبــر صاحــبه العالِم العامل :

« فقولا له عليّ :

يــا قــبرُ ، عزّ على دفينك الصّبر .... يا قبر ما أقدَرَ اللهُ أن يطويَ علما ملأ الدّنيا في شبر!

يـــا قبر ما عهدنا قبلك رمسًا ، وَارَى شمسا ، و لا مساحة تُكال بأصابع الراحة ، ثم تلتهِمُ فلكا دائرا، و تحبس كوكبا سائرا، يا قبر قـــد فصل بيننا و بينك خطّ التواء، لا خطّ استواء، فالقريب منك و البعيد على السواء !

يا قبر أتدري من حويت ؟ و على أيّ الجواهر احتويت ؟ إنّك احتويت على أُمَّة في رُمَّة، و على عالَمٍ في واحدٍ ! » [41] .

ثم يُحمّل صاحبيه قوله لصاحب القبر : « يا ساكن الضريح ، نجوى نضوٍ طليح، صادرة عن جفن قريح ، و خافق بين الضلوع جريح ، يتأوّبه في كلّ لحظة خيالك و ذكراك....

يـــا ســـاكن الضـــريح ، أ أكنّـــي ؟ أم أنت كعهدي بك تؤثر التصريح ؟ إنّ بعدك أتعب من بعدك . . . . و أيم اللّه لقد تلفّتت بعدك الأعناق و اشرأبت و ماجت الجموع و اتلأبت ، تبحث عن

---

(41) المصدر نفسه ، ص : 657 .

إمـــام لصفوف الأمة ، يملأ الفراغ و يسدّ الثّلمه ، فما عادت إلاّ بالخيبة ، و صفر العيبه .

يا ساكن الضّريح ، متّ فمات اللّسان القوّال، و العزم الصوّال، و الفكر الجوّال، و مات الشخص الذي كان يصطرع حوله النّقد ، و يتطاير عليه شرر الحقد، ولكن لم يمت الاسم الذي كانت تقعقع بــه البُرُد، و تتحلّى به القوافي الشُّرُد، و لا الدوي الذي كان يملأ سمع الزمان، و لا يبيت منه إلاّ الحق في أمان، مات الرسم و بقي الاسم ، و اتفق الودود و الكنود على الفضل و العلم » .

ثــمّ يــتقدّم الكاتب خطوة نحو نهاية (المشهد-الموقف) مهنئا (ابــن باديس) على ما قدمت يداه من (باقيات صالحات) مطمئنا له في مثواه، أن تلاميذه على دربه سائرون « دعاة إلى الحق بين عــباده ، يلقــوْن فــي ســبيله القذى كُحلا ، و الأذى من العسل أحلى» .

قائلا في الختام : « سلام عليك في الأولين، و سلام عليك في الآخرين، و سلام عليك في الحكماء الربانيين ، و سلام عليك إلى يوم الدين » [42] .

لقد بدا المشهد و الموقف جامعا بين عناصر هذا النّص في نوع المقامـــة ، و قد أشبع بالشخصيتين الخياليتين اللتين أبدعهما خيال الكاتـــب لتبلـــيغ رأيـــه ، و رؤيـــته فـــي (إنجـــاز ابن باديس) الفكـــري ، و فـــي الفراغ الذي أحسّه الكاتب كبيرا يعسر أن يملأ ببساطة .

و استمســـك الكاتب بذلك في هذا السّجع الخفيف اللطيف، الذي نـــوّع في موسيقاه، و شكّل في مقاطعه ، فحمّله ما كانت تمور به نفســـه مـــن أوجـــاع وطنية، و أشواق إنسانية، قوامها : الوفاء، و الحـــب و الإخـــلاص ، و الصـــدق ، صـــدق ثبات في أقوال و أفعال .

---

(42) المصدر نفسه ، ص : 658 .

فــإن خلــت الــتجربة فـــي النهاية من (البطولة) التقليدية في (المقامــــة) فقد عوّضها الكاتب بضرب آخر من (بطولة) معينة، هـــي هذه (الشحنة) المتراصة العناصر، المتلاحقة من العواطف الإنسانية الرقيقة ، فكانت روح الكاتب (بطارية) هذه الشحنة التي توسّلت بنكرتين ، أبدعهما خيال (الكاتب) على نحو ما كان يفعل الشعراء ، منذ خاطب امرؤ القيس مرافقين وهميين قائلا :

قفانبك من ذكرى حبيب و منزل بسقط اللّوى بين الدخول فحوْمل

و تــبقى هذه (المقامة) أحد النماذج الجيدة في النثر الجزائري الحديــث، مـــن النماذج التي تعبّر عن شخصية (الإبراهيمي) كما تعطـــي فكـــرة عن إبداعه بهذا الأسلوب الذي جارى فيه بنجاح مواطنه (المقري) صاحب (نفح الطيب) في المبدعين الأولين .

و الملاحــظ في النهاية أن النماذج المقامية تعددت، في القرن العشرين، فاختلفت بعض الشيء ، عن القرن التاسع عشر، بفعل

المــناخ المــتطور في الجزائر سياسيا و ثقافيا، فضلا عن شيوع الطباعة، و تأسيس الصحف، فكلّ مقامات القرن العشرين نشرت فــي الــبدء في الجرائد الجزائرية ، مع اختلاف كتابها إمكانات فكرية و أسلوبية ، كاختلاف مشاربهم .

لكــن الــنزعة الإصــلاحية للخروج من التخلف، ونبذ التقليد و الجمــود، بــدت قضــية جوهرية مع استماتة في التأكيد على ضــرورة الاحــتماء بالهوية الوطنية، من خلال التشبث برمزيها (اللغة العربية) و (الإسلام) اللذين ينبغي أن ينهضا أيضا بدوريهما عــبر كــلّ الوســائل ، و بمنهج جيد في تعليم العربية ، و تقديم الإسلام في صورته الناصعة برجال أفذاذ متمكنين : علما، و أداة تبلــيغ ، كمــا امــتدت النزعة الإصلاحية إلى (التشهير) ببعض (الآفات الاجتماعية) مثل تهميش العلم و العلماء، و سيادة منطق المــال ، فــي أيدي جهلاء ، فغدا موقع المرء بما يكسب من مال

و جـاه تبعا لذلك ، لا بما توفر عليه من أخلاق و علم وحكمة ، و حسن رأي و تدبير .

هـو الأمـر الذي جعل للأميين ، و الجهلة (سيادة) و (قيادة) و جعـل العلماء يعانون همومهم في حياتهم و معاشهم ، فيدينون واقعـا سادت أراذله ، فباتت لهم الجرأة الكاملة لا للنيل من العلم و العلمـاء ، بل للقدح في حضارة الإسلام إنكارا وقحا لما قدمته هذه الحضارة الإنسانية للبشرية جمعاء ، في العالم كلّه .

كـن ذلـك كلّه لم يندثر معه الأمل في واقع بديل، على رجل الفكـر و العلـم و الدين و التعليم أن يهيئ أسبابه، بإجادة أدوات العمل، و تحسين مناهج العمل، في التعليم لإعداد جيل متعلم واع قـوي، و فـي الدين لينهض علماؤه بدورهم الإنساني بعيدا عن الـتخلف الفكـري، و الاكـتفاء بتصفيق (غوغاء) تهرف بما لا تعرف.

فحدث إذن تطور واضح في مقامة القرن العشرين ، من زاوية الرؤية الاجتماعية، و الفكرية ، و الإصلاحية ، و كذلك المعالجة الأسـلوبية أيضا ، مع ارتباطها بظروف العصر ، في إفرازاته ، ونتائجه و الموقف من ذلك كلّه .

الجزائر -الدوحة : في 7-1-1420هـ/24-4-1999 م.

الخاتمة

النظرة الهادئة في النثر العربي الجزائري عموما ، و المقامة منه خصوصا من القرن الثاني عشر الميلادي حتى القرن العشرين : تكشف عن حيوية الكلمة الأدبية في الجزائر ، و رغم ظروف الانحطاط و الضعف ثم الهوان الذي لحق الوطن و الأفراد ، و من هؤلاء : الكتاب ؛ فلم تمت الكلمة الأدبية ، و لا اندثر النص الأدبي المتوهج في أكثر من حلة ، كما اتضح ذلك في نماذج (ابن محرز الوهراني) في الأولين ثم (ابن ميمون) في العهد العثماني المتميز بأكثر من مستوى فني : ضعفا و قوة ، حتى (الأمير عبد القادر) و (الديسي) و (خبشاش) و(الإبراهيمي).

لقد تعددت الأشكال و الألوان في (أدب المقامة) في (النثر العربي الجزائري) القديم و الحديث ، فأسندت الرواية فيها للكاتب

بضمير المتكلم ، كما أسندت لمجهول ، أو لمتخيل ، أو لأسماء رمزية ، مادية أو وهمية أو معنوية.

و كان (المقام) تقريبا كمجال عام في سائر المقامات ، قد اتخذ في بعضها شكل المذكرات ، و التاريخ الواقعي ، كحال (ابن حمادوش) و (ابن ميمون) و اتخذ بعضها الآخر الطابع الترفيهي الساخر ، كالحال مع (الوهراني) مثلما اتخذ جانبا صوفيا لدى (الأمير عبد القادر) و فكريا و إصلاحيا بأشكال مختلفة ، مع (الديسي) و (ابن إبريهمات) و (خبشاش) و فكريا إصلاحيا ما عند (الإبراهيمي).

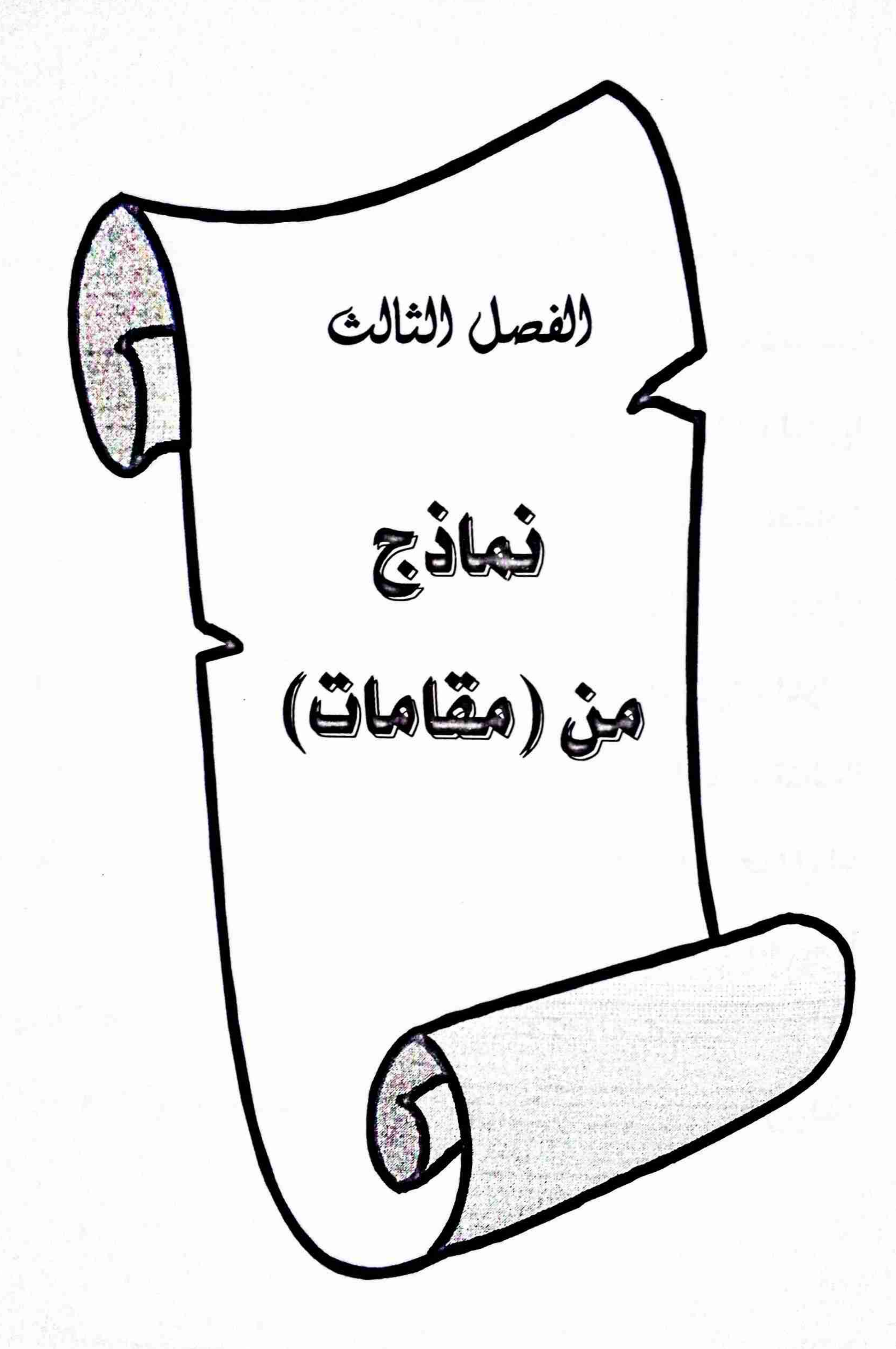
فكانت الوظيفة عموما : تاريخية ، فكرية ، سياسية ، ثقافية ، اجتماعية ، و ترفيهية ، تراوح فيها البناء الفني بين التقليد و التجديد ، على مستوى الموضوعات ، و الشخصيات ، و الأسلوب نفسه : الذي كان فيه تباين كبير بين الكتاب ، لكنه بدأ جيدا و قويا مع (ابن محرز الوهراني) في (القرن السادس)

الهجـري ، و انــتهى كذلك بشكل متقدم نسبيا مع (محمد بن عبد الرحمن الديسي) و (محمد البشير الإبراهيمي).

فــي هــذه الــرحلة الطويلــة لفن المقامة في (الأدب العربي الجزائــري) إذن بدت فترات انطلاق ، و فترات انحطاط ، مثلت نماذجها الضعيفة تجربة (ابن حمادوش) بينما مثلت نماذجها الجيدة تجـربة (الوهرانــي) قديما ، و تجربتا (الديسي) و (الإبراهيمي) حديثا.

كــل هذا و غيره يعكس حيوية الكاتب الجزائري الذي تقعد به الظروف وحدها فتحول بينه و بين الإبداع و التجويد فيه ، و مع ذلــك كان دائما يحاول تحدّيها و تجاوزها هي و من يصنعها في (المحـيط السياســي) العام الذي (غالبا) ما كان السبب في إنجاز المحـيط السـلبي فكريا و أدبيا بالجزائر ، منذ اثني عشر قرنا ، حافلة بالإحباط ، و العطاء رغم ذلك!

عمر بن قينة



الفصل الثالث
نماذج
من (مقامات)



تمهيد

تستمد مادة هذا الملحق من المصادر و المراجع التي كان الاعتماد عليها ، مراعيا القيمة التي تعكسها مختلف المراحل : تاريخيا ، فكريا ، اجتماعيا ، و نفسيا أيضا ، بالنسبة للكاتب و محيطه الاجتماعي الضيق أو الوطني أو القومي العام. هذا فضلا عن مراعاة القيمة الفنية التي تحفز خيال القارئ ، تفيده و تمتعه.

لهذا ركزت على الأهم في اختيار (المقامات) من منطلق الأبعاد السابقة ، و تحاشيت إدراج نماذج أخرى مكتفيا بما عرضته منها نظرا لمحدودية دلالالتها الفكرية و الفنية ، أو ضعف المستوى الفني فيها.

أقدم هذه النماذج من (المقامات) إذن لتكتمل الصورة لدى القارئ الكريم من جهة ، و لأوفر حقلا للتطبيق و الإثراء و إفادة

الباحث و الدارس و الطالب الجامعي و المثقف الطُّلعة ، و القارئ الجاد عموما.

حرصت على الإبقاء على النصوص بمعظم تعاليقها التي لا تربك القارئ ، ولم ألجأ لحذف فقرات من بعض إلا تحاشيا للإطالة فيما قد يغني عنه غيره في السياق ، خصوصا حين تكون المقامة طويلة نسبيا.

و بالله وحده التوفيق ، عليه توكلت و إليه أنيب ، في البدء و في الختام.

أولا : للكاتب محمد بن محرز الوهراني :

1 - المقامة البغدادية :

قــال الشيخ ركن الدين محمد بن محمد الوهراني المغربي عفا الله عنه يصف بغداد المحروسة و سفرته إليها و يمدح الخليفة.
قال الوهراني : لما تعذرت مآربي ، و اضطربت مغاربي ، ألقيتُ حبلــي على غاربي ، و جعلت مُذهبات الشّعر بضاعتي ، و من أخــلاف الأدب رضاعتي . فما مررت بأمير إلا حللت ساحته ، و اســتمطرت راحــته ، و لا وزيــر إلا قرعت بابه ، و طلبت ثوابه ، و لا بقاض إلا أخذت سَيْبَهُ ، و أفرغت جيبه. فتقلّبت بي الأعصــار ، و تقاذفــت بي الأمصار ، حتى قربت من العراق ، و سئمت مــن الفــراق. فقصدت مدينة السلام ، لأقضي حَجّة الإســلام. فدخلتها بعد مقاساة الضُّر ، و مكابدة العيش المر. فلما قــرَّ بها قراري ، و انجلى فيها سراري ، طفتها طواف المفتقد ، و تأمّلتها تأمُّل المنتقد ، فرأيت بحراً لا يعبر زاخره ، و لا يبصر

آخـــره ، و جنةً أبدع جَنّانُها ، و فاز باللذة سكّانها ، لا يميل عنها المـــتّقون ، و لا يرتقي إلى صفتها المرتقون ، "كمثل الجنة التي وُعد المتقون". فأرحتُ نفسي من سلوك الغور و الفج ، و جلست أنـــتظر أيام الحج ، و تاقت نفسي إلى محادثة العقلاء ، و اشتاقت إلـــى معاشـــرة الفضلاء فدلّني بعض السادة الموالى ، إلى دكان الشـــيخ أبـــي المعـــالى [1] ، فقال : هو بستان الأدب ، و ديوان العـــرب ، يَـــرجع إلـــى رأي مصـــيب ، و يضرب في كل علم بنصـــيب. فقصدت قَصْده ، حتى جلست عنده. فحين نظر إليّ ، و رأى أثـــر السّـــفر علـــيّ ، بدأني بالسلام ، و بسطني بالكلام. و قال : من أيّ البلاد خرجت ، و عن أيها دَرَجت ؟ فقلت : من المغرب الأقصى ، و الأمد [2] الذي لا يحصى ، و من البلد الذي لا تصل إليه الشمس حتى تكِلَّ أفلاكُها ، و تضجّ أملاكهُا ، و لا القمـــر حتى يتمزق سَرْجُه ، و يتداعى بُرجه ، و لا الرياح حتى يحجـــم إقدامها ، و تحفَى أقدامها. قال : كيف معرفتك بدهرك ،

---

[1] هو غالبا أبو المعالي الكتبي المتوفى سنة 568 (ابن الجوزي ص 241).

[2] في الأصل : الأمر

و مــن تركــته وراء ظهــرك ؟ فقلت : [3] أما البلاد فقد دُستها و جُســتها ، و أمــا الملوك فقد لقيت كبارها و حفظت أخبارها ، و قــد كتبــت في ذلك مجلداً [4] و تركت ذكرهم فيه مخلداً ، فأيّ الــدول تجهل ، و عن أيها تسأل ؟ فقال : أول ما أسألك عن دولة الملثميــن [5] و أبــناء أمير المسلمين . فقلت هيهات ، يا بعد من مات خمدت نارهم ، و بادت آثارهم ، و اسود ناديهم ، و ملكتهم أعاديهم.

جمالُ ذي الأرض كانوا في الحياة و هم   بعد الممات جمالُ الكُتْبِ و السِّير

أفلــت بدورهــا ، فتعطلت صدورها ، و طلعت نحوسها ، فغابت شموسها.

---

[3] في الأصل : فقال

[4] لم نحصل فيما لدينا من المراجع على اسم هذا المجلد الذي يذكره و لا شيئا عما يحتويه

[5] دولة الملثمين : يريد بهم دولة المرابطين الذين نشروا نفوذهم في المغرب و الأندلس خلال القرن الخامس الهجري و السادس ثم سقطت دولتهم بقيام دولة الموحدين (انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة مرابطين . و المعجب لعبد الواحد المراكشي)

أمست خلاءً و أمسى هلُها احتملوا   أخنى عليها الذي أخنى على لبُدِ (6)

قــال : فمــا تقول في عبد المؤمن (7) و أولاده ، و سيرته في بــلاده ؟ فقلــت : مؤيد من السماء ، مسلط على من فوق الماء . خضعت له ذوو التيجان ، و خدمه الإنسُ و الجان ، ولو أن للقلم لساناً ، و للورقة إنساناً ، لتألمت و تظلمت و لأنشدتك في الملا ، قول الشيخ أبي العلا :

جَلَوْا صارماً و تَلَوْا باطلا   و قالوا صدمنا فقلنا نعم (-)

و لكــن الســكوت عن هذا أنجح ، و مسالمة الأفاعي أصلح . قــال : فمــا تقــول في دولة كافر صقلية(8) ، و سيرته في الأيام

(6) لبد : آخر نسور سليمان عليه السلام و كان معمراً.

(7) عبد المؤمن : هو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلي بن مروان ، أبو محمد الكرمي

(=) أمير المؤمنين مؤسس دولة "الموحدين" المؤمنية في المغرب و أفريقيا و لونس، كان قائدا شجاعا في عهد ابن تومرت ملك المغرب الأقصى . فلما توفي اتفق أصحابه على خلافة عبد المؤمن و رعى أمير المؤمنين سنة 526 هـ. و هو الذي قاتل الملثمين "بني تاشفين" و استأصلهم من آخرهم ، و كان محبا للغزو و الفتوح ، خضع له المغربان " الأقصى و الأوسط" و استولى على أشبيلية و قرطبة و غرناطة و الجزائر و المهدية و طرابلس و المغرب و سائر بلاد إفريقية ، و أنشأ الأساطيل ، توفي 558 (وفيات الأعيان 1 - 310 - الأعلام 4 - 319)

(8) كافر صقلية : يريد بهم ملوك صقلية من النورمنديين منهم روجر الذي ألف له الشريف الإدريسي كتاب "نزهة المشتاق" (إحسان عباس : تاريخ صقلية)

المتولّـية ؟ فقلــت لــه : إنــه لمــا انقرض طاغوتها ، و هلك جالوتها[9] ، تناثر سِلكها ، و تدابر مُلكها ، فصاروا يمدّونه[10] // بالهدايا و اليراطيل ، بعد الجيوش و الأساطيل.

و من ذا الذي يا عزّ لا يتغيّرُ

قـال : فمـا تقول في الدولة المصرية ، و الحلفاء العَلَويّة[11] ؟ فقلت : عجوز محتالة ، و طفلة مختالة ، و كاعب فتانة ، و غادة مجّانة.

تفانى الرُجالُ على حبِّها   فما يَحصُلون على طائلِ

---

[9] جـالوت : أو جليات Goliath و معناها بالسريانية مسبى : اسم لبطل جبار فلسطيني من مدينة جت . اشتهر بالمحاربة التي قام بها ضد إسرائيل فأراد أن يكل أصحابه مؤونة الحرب بأن يصارع بنفسه أشجع رجال إسرائيل على أنه إذا قتل هو خضع الفلسطنيون لإسرائيل و إن قتل خصمه أخضع إسرائيل لهم فبقي جليات هكذا مدة 40 يوما و هو يعبر إسرائيل في المساء و الصباح و يطلب من يبارزه . فأتى داود و رماه بحجر من قلاعه فشق جبينه و وقع صريعا فاحتز داود رأسه و حمله أمام الشعب . و قد ذكر تفصيل قصته في الإصحاح السابع عشر من سرصموئيل الأول (دائرة معارف البستاني 6 - 504 ج1 ط بيروت 1883 م

[10] العبارة هنا غامضة و لا ندري ما فاعل يمدونه هل يريد به ملوك المسيحية أم يريد بعض طوائف المسلمين ؟

[11] يريد الدولة الفاطمية

ربَّاهـــا السلطان في الحجور ، بين الفسق و الفجور ، حتى إذا هرمـــت ســـعودُها ، و ذَوَى عودها ، رُميت بالرواعد ، فأتى الله بنيانهم من القواعد.

و إن الجرح يَنْغِرُ بعد حين   إذا كان البناءُ على فسادِ

قـــال : كـــيف أُخِـــذَتْ مـــن أربابها ، و استُنْزِعت من أيدي أصحابها ؟ فقلت له : اعلم أنه لما أحانَ الله حَيْنَهم ، أظفر شيْنَهمْ ، و ألقـــى بأسهم بينهم ، فضرب زيدٌ عمرواً ، و قتل خالدٌ بكراً ، و كســـر قرابُ السيف ، و أُغمد في الشتاء و الصيف. فما انقشع فســـادُهم ، حتى فنيت آسادهم ، و لا بَرِح عنادُهم ، حتى تفرقت أجـــنادهم ، فقصُرَتْ حبالُ الدولة عن ربطها ، و ضعفت رجالها عـــن ضـــبطها ، فبقيَتْ كالجارية الحسناء التي أبرزها الحجال ، و أســـلمتها الـــرجال ، فـــتغاير عليها الجيران ، و طرح عندها الجـــيران[12] . و ســـبقَ إلـــيها رجال الفرنج ، فصيروها كرقعة الشطرنج ، يجوسون خلالها ، و يتفيئون ظلالها ، فأنفَ من ذلك

---

[12] كذا بالأصل ، وهو لا يستقيم معنى و لا يتفق مع أسلوبه في السجع.

ذوو الأحـــلام ، و ملوك الإسلام ، فانتدب لها من بني شادي[13] الأسد الهصور ، و الملك المنصور[14] فرماها بهمته ، و قصدها برمّـــته. فدافعوه و مانعوه ، و استعانوا عليه بالأسْود و بالأحمر ، و بـــالملوك مـــن بنـــي الأصـــفر[15]. فقتلهم و كسرهم ، و أخذ أبطـــالهم و أســـرهم . و لـــم يزل فيها بين الطارق و المنتاب ، و الســـاكن و المرتاب ، إلى أن طواها طيّ السجل للكتاب. فلما انتهى إلى كماله ، و بلغ النهاية من آماله ، و فاز بالرضوان في قُربه ، انتقل إلى ربه. و أجمع الناس بعد موته ، على تخليدها في أهـــل بيـــته. لما يعلمون من رياستهم ، و حسن سياستهم ، و ما

---

[13] بني شادي : نسبة إلى شاذي بن مروان والد نجم الدين أيوب . و أخيه الملك المنصور أسد الدين شيركوه (مفرج الكروب 3/1)

[14] الملك المنصور : أسد الدين شيركوه و معناه بالعربية أسد الجبل بن شادي بن مروان أبو الحارث ، الملك المنصور عم السلطان صلاح الدين الأيوبي و كان شجاعا عاقلا مقيما بدمشق ، استنجد به المصريون حين دخل الإفرلج بلبيس و قتلوا أهلها سنة 564 هـ فجاءهم و طرد الإفرلج و خلع عليه الخليفة العاضد خلع السلطة و عهد إليه بوزارته فأقام وزيرا شهرين و أياما ثم توفي فجأة في السنة نفسها 564 هـ (جريدة القصر و جريدة العصر تحقيق د/ شكري فيصل 1 - 193 - و انظر وفيات الأعيان ، النجوم الزاهرة 5 - 388 - الأعلام 2 - 421).

[15] بني الأصفر : يريد هنا الروم

يَخـــبرُون عـــن ســـماحِهِم و طـــول رِماحهم. فاتفق أهل الحِل ، و أربـــاب العَقْـــد و الحَل ، بعد النظر في الأواصر ، و الاختبار للعناصر ، على تقليدها لابن أخيه الملك الناصر[16] لما جبل عليه مـــن حميد الأوصاف ، و إيثار العدل و الإنصاف ، و ما اجتمع فـــيه من أخْلص الملوك و تواضع الصعلوك ، و ما خص به من شـــهامة الجـــنّان ، و سماحة النفس و البنان. فتسلمها مضطربة الأوائـــل ، محشوَّة بالفتن و الغوائل ، تسري عقارب أصحابها ، و تغلي مراجل أربابها ، فوثب عليهم وثبة الأسد الكاشرِ ، وسطا علـــيهم[17] سطوة الأسدِ الباسر[18] ، فأخرج المفسد و المحارب ، و قـــتل الأفاعـــي و العقارب. فتمهدت له شعابها ، و ذلت بسيفه صـــعابها. و صـــارت القاهرة بعدهم كجنة النعيم ، و كانت بهم كالقبعة في سواء الجحيم. و لما انتظمت جواهرُ سِلكه ، و اطمأن على سرير ملكه ، ساقت السعادة أهله أجمعين من العدو سالمين ،

---

(16) الملك الناصر : صلاح الدين الأيوبي حكم من سنة 567 إلى سنة 589 هـ

(17) عليهم : في الهامش "بهم"

(18) الباسر : بسر العدو : قطب وجهه . و يقال للأسد البسور و يلاحظ أن السجعة ترجح (الكاسر) في الأولى و أسلوبه يقتضي أن لا يكرر لفظ الأسد.

و بالقــرب غانمين فأكثر الشكر لله رب العالمين ، و قال ادخلوا مصــر إن شاء الله آمنين. و رفع أباه على العرش ، و بسطت له الخــدود مكان الفرش. و أنشدهم بعض خدمهم في ذلك المقام في التهاني ، للخادم الوهراني :

المُلْك مبتسـمٌ من بعد تقطيـبِ و السعدُ يخدمه في كل تأويبِ[19]

بالناصر الملك الميمـون طائـرُه تخلصَتْ مصر من حربٍ و تخريب

قد صار يوسفُ فيها مثل يوسفها فذا ابن أيوب يحـكي نجلَ يعقوبِ

و صلى الملك الزاهد ، و البطل المجاهد نجم الدين[20] و سيف المجاهديــن ، أول جمعة صلاها أربعاً[21] ، و لم يجد فيها للسنّة مجمعاً ، فصعب عليه تبطيل هذا الفصل ، و إسقاط ذلك الأصل ، فأقبل يمهد القواعد و يهديها ، و يخمد البدع و يخفيها ، حتى كمل

---

(19) تأويب : تأوب الشيء فلانا : عاوده

(20) نجم الدين : الملك الأفضل نجم الدين أبو الشكر أيوب بن شاذي والد الملوك توفي سنة 578 هـ . كان جوادا رحيما . كثير البذل حسن النية جميل الطوية . و اتفقت له سعادة عظيمة (مفرج الكروب 1-230 . وفيات الأعيان 139 . 152)

(21) يريد أن عدد المصلين لم يكن كافيا لامتناع المصريين عنها تشيعا للأئمة الفاطميين . فصلى الجمعة ظهرا . أي أربع ركعات.

الإسلام ، و تم دين النبي عليه السلام. و أتى البيت من بابه ، ورد الأمر إلى أربابه ، أجراً ساقه الله إليه ، و فتحاً مبيناً قضى به على يديه. فأمر بذكر لعشرة ، الكرام البررة[22] ، و صرح بأسمائهم على المنابر ، و أرغم بهم أنف الحسود المكابر. ثم خرج من الشك و الالتباس ، و دعا للأئمة من بني العباس ، لعلمه أنه لا يتم الإيمان إلا بولاياتهم ، و لا تحسن المنابر إلا بسواد رايتهم ، و لكونه غُذى بلبانهم ، و نشأ في إحسانهم ، فحصل بنو شادي على الرتبة الفاخرة ، و قطعوا عرض اللجة الزاخرة ، و فازوا بنعيم الدنيا و ثواب الآخرة. فسار ذكرهم في الأقطار ، و انثال عليهم ذوو الأخطار و الأوطار ، و قصدهم الملك و المملوك ، و انتابهم الغني و الصعلوك. فوهبوا الجياد و العباد ، و فرقوا المال و الأعمال ، فقويت بهم كلمة الموحدين ، و خمدت

---

[22] العشرة الكرام البررة : هم أصحاب الرسول المبشرون بالجنة و هم : أبو بكر ، عمر ، عثمان ، علي ، الزبير ، طلحة ، عبد الرحمن بن عوف ، سعد بن أبي وقاص ، رسول الله ﷺ، سعد بن زايد (تاريخ بن عساكر - 100)

نيران المشركين ، بسعادة المستضئ بأمر الله[23] أمير المؤمنين . فقال لله درك لقد أجبتني و أعجبتني ، و أنشد :

ستبدي لك الأيام ما كنتَ جاهلا   و يأتيك بالأخبار من لم تزودِ

فقلت له : حدثني أنت عن سيرة الإمام ، في هذه الأيام . فإني ذاهــب إلــى قــوم يعتقدون إمامته حقاً لازماً ، و ولايته فرضاً جازمــاً . يــتقربون إلى الله بمحبته ، و يتوسلون إليه بحرمته . فقــال : مــا عســى أن أقول ، في ابن عم الرسول خليفة الله في بــلاده ، و وصــية على أولاده ، و مسيح زمانه ، مهدي عصره و أوانه . عزيمته أمضى من الحسام ، و يمينه أندى من الغمام ، و وجهــه أبهى من البدر ليلة التمام ، قد جمع الله فيه من الفضل و الوفاء ، ما فرقه الله في سائر الخلفاء ، فكأنه السفاح في حزمه و عــزمه ، و المهدي في دولته وصولته ، و الرشيد في سياسته

---

[23] المستضئ بأمر الله : في سنة 575 هـ توفي الخليفة المستضئ بأمر الله ، أبو المظفر يوسف ابن المقتفي لأمر محمد لإثنى عشرة مضت من شوال ، و كانت خلافته عشر سنين غير أربعة أشهر و استخلف من بعده ابنه الناصر لدين الله أبو العباس أحمد (السلوك للمقريزي ص 70)

و رياسته ، و الأمين في بهائه و سخائه ، و المأمون في علمه و حلمه ، و المعتصم في شهامته و صرامته . فلا جَرَم أن الخلافة حامت عليه ، و ألقت زمامها في يديه ، و أمالوها عنه فمالت إليه ، فبوأته حجالها ، و فَيأتْهُ ظلالها :

فلم تك تصلح إلا له　　　و لم يك يصلح إلا لها

فطبق البلاد عدله ، و وسع العالم فضله ، و كشف بنوره القمرين ، و أحيى بعدله سيرة العمرين[24] ، فحسنت به الأيام و تجملت ، و نالت الرعية فوق ما أمَّلت :

فالله يبقيه للإسلام يحرسه　　　و الله يبقيه للدنيا و للدين

قلت : فما تقول في عضد الدين[25]. فقال جبل حلم راسخ ، و طود علم شامخ ، و سهم رأي صائب ، و نجم عدل ثاقب ،

---

[24] العمرين : يراد بهما أبا بكر و عمر

[25] الوزير عضد الدين : أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج محمد بن أبي الفتوح عبد الله ابن المظفر بن رئيس الرؤساء (مفرج الكروب 1-194 ، و انظر هامش مفرج الكروب ص 196 حيث أحال الأستاذ الشيال إلى الفخري لابن طباطبا ص 280 ، 282).

نجل الملوك الأكاسرة ، و ابن التيجان و الأساورة[26] . أكرم من الغيث الهامر ، و أشجع من الليث الخادر. كان المستنجد بالله[27] – قدّس الله روحه و برّد ضريحه – لما خَبَرَ ديانته و أمانته ، وفهم طريقته و حقيقته ، وضع كل الدولة عليه ، و ألقى مقاليد الأمور إليه ، فأخذ القوس باريها ، و نزل الدار بانيها. فقلت له : ما تقول في حلول بابه ، و استمطار سحابه ؟ فقال : و الله لو قصدت باب الوزير ، لأمطرك من وبله الغزير ، ما يبلغك إلى أوطانك ، و يُزهدك في سلطانك ، و يزري عندك بمن لقيته من الأمراء ، و من شاهدته من الوزراء. فقلت له : إذن و الله أشكره شكر الأرض للسماء ، و الروض الزاهر للماء ، و لا سيما إن أخذ لي من الخليفة خلعة سنية منيفة ، أستضئ باقتباسها و أتبرّك بلباسها ، و أنشرها على منارة الإسكندرية ، و أطرحها على

---

(26) الأساورة : مفردها : أساور و هو قائد الفرس . و الأساور كذلك الجيد الرمي بالسهام و غيرها . و الأصل أساورة الفرس.

(27) المستنجد بالله هو الخليفة السابق على المستضئ بأمر الله.

ســـاحل المـــرية[28] ، و أكبت بها الأقران في وهران ، و أطلق بشكره اللسان في تلمسان[29] ، و أدعو له في مدينة فاس[30] على عـــدد الأنفـــاس ، و أثنى عليه في أغمات [31] إلى وقت الممات فقـــال : أبشر ببلوغ الأمل ، و نجاح هذا العمل. فهل عرفت في

(28) المرية : مدينة كبيرة من كورة البيرة من أعمال الأندلس، و كانت هي و بجاية بـابي الشرق منها يركب التجار و فيها تحل مراكبهم فيها مرفأ و مرسى للسفن و المراكب . و المرية أيضا مرية بلسن : بلده أخرى بالأندلس من أعمال رية على ضفة النهر . كانت مرسى يركب منه في البحر إلى بلاد البر في العدوة من البحر الأعظم – و الرأي أنه يقصد الأولى (معجم البلدان 8 – 42 ، 43)

(29) تلمسان : و بعضهم يقول تنمسان : و هما مدينتان متجاورتان مسورتان احداهما قديمة و الأخرى حديثة . و الحديثة اختطها الملثمون من ملوك المغرب . و اسمها نافرزت فيها يسكن الجند و أصحاب السلطان و أصناف من الناس و اسم القديمة أقادير يسكنها الرعية فهي كالفسطاط في القاهرة من أرض مصر (معجم البلدان 2 – 408)

(30) فاس : مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب و هي حاضرة البحر و أجل مدنه قبل أن تختط مراكش و فاس (معجم البلدان 2 – 329)

(31) أغمات : ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش . و هي مدينتان متقابلتان كثيرة الخير . و من ورائها إلى جهة المحيط السوسي الأقصى بأربع مراحل . و من سلجماسة ثماني مراحل في بحر المغرب . و ليس في بلد المغرب كما زعموا بلدا جمع الخيرات و لا أكثر ناحية و لا أوفر حظاً لا خصبا مليا ... تداولتها عدة دول منها دولة الملثمين و كان فيهم جد و صلابة في الدين ... ثم عبد المؤمن و بنوه و لهم قاموس يلتزمونه و سياسة يقيمونها لا يثبت معها مثل هذه الأخلاط و الله أعلم ... و بين و مراكش فراسخ . و هي في سفح جبل هناك (معجم البلدان 1 – 209 ، 291)

هذا الأمد ، أحداً من أبناء البلد ؟ فقلت له : كنت أسمع عن مدينة السـلام و أنه لا يطمع من أهلها غير السلام ، فوافق ذلك ما كان في نفسي ، و طابق الذي وقع في حدسي ، إلى أن دخلت في هذا الأوان ، إلـى جـلال الدين[32] صاحب الديوان ، فرأيت شخصاً كثير الإنصاف ، كامل الأوصاف.

(و ليس على الله بمستنكر) أن يجمع العالم في واحدِ

فأغناني بخيره و أمدني بميره ، و لم يحوجني إلى غيره.

قام بأمري و قد قعدت به و نمت عن حاجتي و لم ينم

قال : كيف رأيته في نفسه وحسبه ؟ فقلت : نجم ذكاء يتألق ، و بحر علم يتدفق ، مروءته ظاهرة و أفعاله طاهرة.

أخلاقه كالراح شيبَ ببارد من الماء عذبٍ أو بريق الحبايبِ

أرقُّ من الشكوى حواشي طباعه و أحلى حديثاً من أمانٍ كواذبِ

فقال : تلك شجرة غرسها الإمام المرحوم بيده ، و رباها لولده. سقاها بماء الأمانة ، و غذاها بلبان الديانة ، فظهر ذلك في

---

[32] جلال الدين صاحب الديوان : (ورد في مفرج الكروب 1 - 194)

لُبّها و حَبّها ، ومنه تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها. فقال لي : إن أجــراك هــذا المذكــور على عادته ، بلغت إلي أملك بسعادته. وودّعني و انكفا ، و أودعني ما كفى.

2 - المقامة الصقلية :

قال الوهراني : دخلت مدينة صقلية في الأيام المتولية ، فرأيتها محـافل[33] الأوصـاف علـى طريق الإنصاف فعشقها شيطاني فأقمتها مقام أوطاني ، فحضرت يوماً في بعض بساتينها مع طائفة من أهل دينها و فيهم أبو الوليد القرطبي ، سلطان الكلام ، يأمره فيوالفه ، و ينهاه فلا يخالفه ، و جرى بينهم حديث أهل البلد و من فـيها مـن الأعـيان و الكلد[34] . فقالوا : يا أبا الوليد أنت حَجَر محكٍّـنا ، و بوتقة سبكنا ، و ها نحن (سائلون ليذهب) عنا دياجى الغيهـب ففضـل مـن يستحق و عيب ، (ليميز الله الخبيث) من الطيـب ، فقـال : أنا أوضح إشكالكم ، (فاسألوا عما بدا لكم) ، فقلـنا : له ما تقول في القاضي ابن رجاء ؟ قال مصباح دجى ، و شـيخ علـم و حجى ، (و هو بيت القضا ، وكلمة حكم و عدل ورِضـا) ، نزّه نفسه عن الرشا و الولائم فلا تأخذه في الله لومة

(33) كذا و لعلها حافلة.

(34) الكلد : المكان الصلب واحدته كلدة.

لائــم ، غــير أنّــه عظــيم الشقشــقة كثــير البقبقة بسيفه على الخصمين ، ولو أنهما ملكين ، و يضيع مواقيت الصلاة ، و يمنع يواقيت الصّلات ، لا يرثى للغريب و لا يتوجع و لا يُؤسي و لا يســأل و لا يتفجّع فنكبٌ عن ذُراه (فلأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه[35])

و إنَّ بقومٍ سوَّدوه لحاجة   إلى سيد لو يظفرون بسيِّد

قلــت : فمــا تقول في الشيخ أبيه ، قال : كان رحمة الله عليه يتــناعس علــى الخصمين ، فلا يوقظه إلا سلْسلَة الكفَّين ، و لو قبضت على أنفه بالكلبتين .. في حلقه (سوء لا سبيل فيه لهوى) ، قلت : فما تقول في ولده ؟ قال : ابن لبون لا ظَهرٌ فيُركب ، و لا ضرع فيحلب ، و أنشد :

إن الفــروع مــن الأصــول و لن ترى فرعاً يطيب و أصله الزقوم[36]

---

[35] أول من قال ذلك المنذر بن ماء السماء (الفاخر في الأمثال ص 53).

[36] الزقوم : شجرة مرة كريهة الرائحة في جهنم ثمرها طعام أهل النار و في التنزيل العزيز : "إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم" و الزقوم كل طعام يقتل.

قـــال : فما تقول في الفقيه ابن بقية ؟ قال : لن يبقى من العلم بعـــد موته بقية . و كأنه تمّ كسف ، وطود[37] علم نسف ، و بحر فقـــه غـــاض ، و نهر أدب فاض ، فسر الأعداء بفقده ، و انتشر البغاء من بعده.

و ما كان قيس هلكه هلك واحد   و لكنه بنيان قوم تهدّما

قلـــنا : فما تقول في الكاتب يوسف ؟ فقال : الرُّجلة و الشهامة و الـــتقدمة و الـــزعامة ، غـــير أن فـــي أسفله داء أسأل الله منه السلامة ، قلنا : فما تقول في ولده أبي علي ؟ قال هشاش بشاش ، و إن مازحته فحّاش ، و إن نازعته فأخلاق جده أبي دكاش ، حلو اللسان بعيد الإحسان.

يريك البشاشة عند اللقاء   و يبريك في السر بري القلم

---

[37] الطود : الجبل العظيم أو الهضبة أو المشرف من الرمل كالهضبة

قلــنا : فمــا تقــول في أخيه أبي الفتوح ؟ فقال : القرض من القرض ، و ذرية بعضها من بعض ، حذوك النعل بالنعل :

" كما قَسَمَ التُرْبَ المفايلُ باليد "

و ذو الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً.

عن : منامات الوهراني و مقاماته و رسائله ،
دار الكتاب العربي للطباعة و النشر ، ص 119 – 121 ، مصر 1968

ثانيا : محمد بن ميمون الجزائري :

1 - مقامة الزحف الوهرانية :

... ذلــك أنــه لما ساعدتهم الأيام ، ومكثوا في المدينة مائتين و خمســة أعــوام[38] ، و بــنوا الحصون و شيدوها ، و تملكوا الأوطان و مهدوها ، صاروا يغزون الإسلام ، من نحو أربعة أو خمســة أيــام، فكم من عالم أسروا ، و كم من شريف نصّروا ، و كم من ولدان ، مرتدين إلى الآن ، وكم من عروب أتراب[39] ،

(38) سـقطت مديـنة وهـران في أيـدي الإسـبانيين في أواخـر المحرم سنة 914 هـ أو آخـر ماي 1508 م و في صبيحة يوم الجمعة من 26 لشهر شوال سنة 1119 هـ 20 جانفي 1708 م فـتحها - عـنوة - مصـطفى أبـو الشـلاغم بـاي الأيالـة الوهرانية و "أوزن حسـن" خليفة الداي و صهره

(39) العـروب مـن النسـاء : الضـحاكة ، أو الناشـزة مـن زوجها ، و الأتراب : ذوات السن الواحد

تولغ فيهن الكلاب ، و كان بنو عامر[40] أول من دخل تحت بيعتهم من المسلمين ، عليهم ما يستحقون من الخزي إلى يوم الدين ، أمة لا تعقل رشدها ، و لا تجري إلى ما تقتضيه نعم الله عندها ، و لا تقلع عن أذى تفشيه قرباً و بعداً جهدها ، فصاروا لا يرعون لجار و لا لغيره حرمة ، و لا يرغبون في مؤمن إلاًّ و لا ذمة ، قد أعماهم عن مصالحهم الأشر ، و أضلهم ضلالاً بعيداً البطر ، ونبذوا المعروف وراء ظهورهم ، و أتوا ما ينكر مقتديا صغيرهم بكبيرهم ، و خاملهم بمشهورهم ، ليس فيهم زاجر ، و لا منهم إلا غاوٍ فاجر ، يعزّون الكافر على المسلمين ، و يغزونهم به في كل كمين ، و مع ذلك يعطون له الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ،

(40) بنو عامر : نسبة إلى عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، وهم بطن كبير من مضر، كانوا متفرقين في أصقاع الجزيرة العربية ، و بالأخص في نواحي الشام. و منازلهم معروفة بفلسطين بـ "برج بني عامر" وقد امتنعوا أن يشاركوا في حرب أهل الردة و استوطنوا الشمال الإفريقي ، و بالأخص المغرب الأوسط (القطر الجزائري) على 442 هـ/1050 - 1051 م (عبد القادر المشرفي ، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر. تحقيق محمد بن عبد الكريم بيروت. مطبعة دار الحياة 1972 م ص : 1 - 55

و يعتقدون أنهم مؤمنون ، و لما تفاقم أمرها و ثقل على المسلمين ضـرها ، حـرض العلماء على القتال ، بقصائد تشف على اللب و تذهـب بالبال ، منهم الناظم الناثر ، الكثير المعالي و المآثر ، الذي لا يدرك باعه ، و لا يترك اقتفاؤه و اتباعه ، السيد ابن عبد الله ، محمـد ، بن محمد ، بن علي ، بن يسعد ، بن سعيد ، ابن عبد الواحد ابن يحي ، بن العباس ، الملقب بابن آقوجيل، ان نثر رأيت البحر الزاخر ، و إن نظم قلد الأجياد دراً تباهى به و تفاخر ، و مـذ كـان أول مـن بدا في الجزائر و ظهر ، تسمى ببحر القريض و اشتهر تسدد إليه السهام ، و تنتقده الخواطر و الإفهام ، فـلا يوصف له غرض ، و لا يوجد في جوهر إنسانه عرض ، وهـو فـي زمانه بدر آفاق ، و موقف الاختلاف و الاتفاق ، مع جـريه فـي مـيدان التفسـير إلـى منـتهاه ، و تصـرف بين

سهله[41] و سهاه[42] ، وله تصانيف في العلوم ألّف فيها ما ألّف ، و تقــدم فــيها و ما تخلف ، ولو أدرك يوم الفتح[43] لتعلق بأذيال المولى ، و لهنأه بقصائد تعيها القلوب و تتلى ، و مما صدر عنه فــي التحريض المشار إليه ، و الإغراء المنبه عليه ، قوله يمدح بعض ملوك المتقدمين[44] ، و هي هذه[45] :

بِسَعَادَةٍ تَجْدِيدِكُمْ وَ سُرُور[46] وَبِهِ الهَنَاءُ عَلَى مَمَرِّ دُهُورِ
طَلَعَتْ طَوَالِعُ سَعْدِكُمْ مَقْرُونَةً بِاليُمْنِ و التَّسْدِيدِ و التَّيْسِيرِ
فَرِحَتْ جَزَائِرُنَا بِكُمْ و تَأَنَّسَتْ بِمَقَامِكُمْ فِيهَا بِحَالِ حُبُورِ
يَدْعُو الإِلَهَ جَمِيعُ مَنْ فِيهَا لَكُمْ بِالنَّصرِ وَ التَّأْيِيدِ وَ التَّبْشِيرِ
يَرْجُونَ مِنْ ذِي العَرْشِ أَنْ لا يَرْتَقِي فِي مُلْكِنَا – ذَا – غَيْرُكُمْ بِسَرِيرِ

---

[41] سهيل : نجم مشرق يطلع على بلاد العرب في أواخر أيام القيظ

[42] السهى : كوكب خفي من بنات النعش الصغير ، يمتحن الناس به أبضارهم ، و في المثل : "أريها السهى و تريني القمر" و المراد أنه لم يترك كبيرة و لا صغيرة إلا أبداها في تفسيره و تصرف في تأويله.

[43] أي يوم فتح وهران

[44] هو أبو العباس أحمد داي تولى سنة 1106 هـ/ 1695 م و دام حكمه إلى سنة 1109 هـ/1698م

[45] القصيدة من البحر الكامل الصحيح العروض المقطوع الضرب

[46] و سرور – بالجر – معطوف على "بسعادة"

فَأَجَابَنَا اللهُ المُجِيبُ دُعَاءَ مَنْ   يُضْطَرُّ وهُوَ مُجِيبُ كُلِّ صَبُورِ
مُذْ قُمْتُمُ بِأُمُورِنَا وَتَصَرَّفَتْ   عَن إِذْنِكُمْ وَ ثُقَتْ عُرَى التَّدبِيرِ
دبَّرْتُمُ أَمْرَ البِلَادِ وَصُنْتُمُ   أَحْوَالَهَا جُهْداً مِنَ التَّغْيِيرِ
وَ حَفِظْتُمُ أَمْرَ المُرَتَّبِ[47] بَعْدَمَا   قَدْ كَانَ فِي ضَيْقٍ و فِي تَعْسِيرِ
....
....
فَاللهُ يُبْقِكُم[48] لِنَفْعِ بِلَادِنَا   ظِلاًّ ظَلِيلاً غَايَةَ التَّعْمِيرِ

و كان الأمير[49] الذي قبل مولانا أرسل خمسين من الأخبية، يحاصرون الطائفة الباغية ، و يأكلون الضرع ، و يفسدون الزرع ، و ذلك أول صفر من سنة ثماني عشرة[50] حتى يخرج هو بنفسه ، و يباشر قتالها بحسه ، فلما أدركه العذل ، و انقلب للجد الهزل ، و صار الأمر لمولانا (بكداش) لم يقدم شيئاً على

(47) هذا ما يدلنا أن صاحب القصيدة كانت له جراية يتقاضاها على عهد ممدوحه.
(48) يبقيكم - بإشباع الميم - : ليستقيم الوزن
(49) الأمير : هو الباشا السيد حسن خوجة الشريف . تولى سنة 1117 هـ - 1705 م.
(50) أي سنة 1118 هـ - 1706 م.

الاعتــناء بجهــاد الكفــرة الأوبــاش ، فجمــع من حينه العسكر المنصــور ، و أمّــر عليهم السيد حسن[51] ، نصره الله و قال : " هــذا خليفتــي علــيكم فــي كل حال ، تخيرته للنيابة عني في تدبيركم ، و القيام بالدقيق و الجليل من أموركم ، و قد رسمت له مــن وجــوه الذب و الحماية ، معالم الرفق و الرعاية ، ما التزم الاســتيفاء به ، و الوقوف بجده عند حده ، و المسؤول في عونه مــن لا عــون إلا مــن عنده ، و لن أعرفكم من حميد خصاله ، و ســديد فعالــه ، إلا بما سيبدو للعيان ، و يزكو مع الامتحان ، و يفشو من قبيلكم – إن شاء الله – على كل لسان ، وقد أمرته أن يكــون لناشــئكم أبا ، و لكهلكم أخا ، و لذي التقويس[52] و الكبر ابــناً ، ما أعنتموه على هذا المراد ، و لزوم الانقياد ، و أما من شــق العصا ، و بان عن الطاعة و عصى ، فهو القاصي ، و لو مُــتَّ إليه بالرحم الداني ، فكونوا له خير رعية بالسمع و الطاعة في جميع الأحوال ، يكن لكم بالبر و الموالاة خير وال".

---

(51) حسن : صهره أوزن حسن.

(52) لذي التقويس : لصاحب الظهر المقوس ، من جزاء الشيخوخة و الكبر.

فقــالوا كلهــم : أن نعم ، لله دره من خليفة و أنعم ، فأقام فيهم ســوق المعــارف علــى ســاقها ، و أبــدع في انتظام مجالسها و اتســاقها ، و أوضح رسمها ، و أثبت في جبين ايوانه وسمها ، ثــم ارتحــل مــن الجزائر بالعسكر المنصور ، و رياح النصر تضرب اللواء المنشور ، و لم يزل يجد سيره في حفظ الله إلى أن نزل بالمحلات ، و طاول المدلات ، فطارت نفس الكافر في أثناء منازلــتهم جــزعاً ، و ذهــب روعــه مقسماً بالانكاد موزعا ، و نغصــت عليه مُنْيَته ، و جاءته منيَّته ، حتى ما كان يلتفت إلى رهــج[53] يغشــاه ، و لا يصيخ[54] إلى رجة تقلقل حشاه ، و لما افــترس لذلــك الأمــير المتقدم هذا الليث ، و طمس رسومه هذا الغيث ، و خاطبه بألسنة الاغماد[55] ، و رماه بداهية زناد ، بقي الحفــيد يتشوف لافق الملك و قد أفلت نجومه ، محترسا من ذلك الليــث الــذي افترسهم هجومه ، في ظنه أنه ينتهز الفرصة في

---

(53) الرهج : غبار يتطاير أثناء الحرب .

(54) يصيخ : يصغي و يستمع.

(55) ألسنة الإغماد : السيوف.

غيبته ، و يسترد ذهاب دولته ، و لم يدر أن مولانا – نصره الله – إنمــا تخلّــف عــن الجهــاد ليحمــي الدولة من انقراضها ، و يرمي من سعى في انتقاضها ، فاتت به يوماً المنية ، و تخطت به تلك السنية ، و بقي مولانا عزيز الدولة على رسمه ، مخطوب فــي منابرها باسمه ، و الاثنان اللذان كانا من الجند مع الحفيد ، أغواهمــا الشــيطان المــريد ، حــتى دبت إليهما تلك الأفاعي ، و اشــتملت علــيهما المســاعي ، فخــرّ جميعهم من عرشهم ، و عوضــوا الــتراب من فرشهم[56] ، فتبارك من لا يكيده كائد ، و لا يبيد ملكه – و كل شيء بائد –.

عن : (التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ص : 201 – 125 ، ش . و.ن.ت ، 1981 ، الجزائر)

(56) كناية من موتهم.

2 - **مقامة الفتح:**

شرف باذخ ، و مجد شامخ ، عقد النجوم ذوائبه ، و أوخز في مفـرق النسـر ركائـبه ، استفتح وهران ، و انبلج صبح النصر و بـان، و قفـل و ألوية النصر عليه خافقة ، و أسواق الظهور نافقـة ، و ألسـنة الشـكر و الحمد ناطقة ، و الظنون في فضله الصادق صادقة ، و الكفر قد ذل واستكان ، و دخل عزه في خبر كـان ، و عـز الإسـلام قـد ظهر و استبان ، و رسا كما رسا رضـوى[57] و أبـان ، و الخيل تلاعب الظلال مرحا و نشاطاً ، و تـلالا اغتـباطاً ، و الجياد الجرد تتدافع و تتمطر ، و الأسل السـمر تـتأود و تـتأطر[58] ، و الجهات بشادي الفتح تتعطر ، اجتمعـت الخلائـق من كل فج عميق لميعاد لقائه[59] ، و برزت المخـدرات لزينة صعوده في سماء الفتح و ارتقائه ، و السكك له

---

(57) رضوى : جبل بين مكة و المدينة.
(58) تتأطر : تتثنى.
(59) الضمير : يعود على "أوزن حسن".

بالأوقـــار[60] قـــد ضاقت ، و الأيدي قد حملت فوق ما أطاقت ، و المناصل[61] قد نهرت و راقت ، و نقمة الله بعدوه قد حاقت ، و نعمه قد بهرت لدينا و راقت ، و أساراهم في أيدينا قد أوثقت ، و تخلفـــت قصـــورهم السامية قيعانا ، و كنائسهم الحافلة أثراً لا عـــيانا ، و قـــد أخذ الله صلبانها ، و استعجل للنيران رهبانها ، و أتـــى الله علـــى بيوتها من القواعد فخرت ، و زلزل مصانعها العالـــية ، فاســـتوت على وجه الصعيد و استقرت ، فما أظن أن مدينة بلغ الخراب من معمورها ، و استأصل العفاء من متبحرات دورها ، ما بلغ من هذه البائسة البائدة ، و القوية المكابرة ، غير الله محاســـنها ، و شرد قاطنها ، فله الحمد و منه أسأل أن يصل للإسلام عوائد النعم الجسام و يلهمنا الشكر المستدعي للمزيد من هذه الأقسام ، و إذا كان هذا الموطئ الذي يغيظ الكفار يرفعه الله و يكتـــبه ، و يعلـــق الثواب الجزيل و يرتبه ، فكيف لا نحمد الله

---

(60) الأوقار : احمال الهدايا.

(61) المناصل : السيوف.

علــى تخريب هذا المصر الشهير ، و القطر الخصيب الخطير ، بحث تمضي الأحقاب و هو عبرة للمعتبرين ، و واعظاً للمبصرين المستبصرين ، و حديثه لسان صدق في الآخرين[62] :

ضَــاءَتْ بِنُورِ إِيَّابِــكَ الأَيَّــامُ ... وَ اعتَــزَّ تَحْــتَ لِوَائِكَ الإِسْـلاَمُ
أَمَّا الجَمِيعُ فَفِي أَعَمِّ مَـسَرَّةٍ ... لَمَّا انْجَلَى بِظُهُورِكَ الإِظْلاَمُ
بَادَرْتَ أَجْرَكَ فِي الجِهَادِ مُجَاهِداً ... ما ضَاعَ عَبْدُكَ لِلثُّغُورِ ذِمَامُ
وَ حَمِدْتَ مُعْتَزِماً وَ سَعْدُكَ مُنْهِضٌ ... نَحْوَ العِدَا وَ دَلِيلُكَ الإِقْدَامُ
كَمْ وَقْعَةٍ لَكَ فِيهِمُ[63] مَشْهُورَةٍ ... غَصَّ العِرَاقُ بِذِكْرِهَا وَ الشَّامُ
فِي مَوْضِعٍ فِيهِ الأَسِنَّةُ و الظُّبَى[64] ... بَرْقٌ وَ نَقْعُ العَادِيَاتِ[65] غَمَامُ
و الضَّرْبُ قَدْ صَبَغَ النُّصُولَ كَأَنَّمَا ... يَنْشَقُّ عَنْ زَهْرِ الشَّقِيقِ كِمَامُ
فَاهْنَأْ مَزِيَّةَ[66] ظَافِرٍ مُتَأَيِّدٍ ... جَفَّتْ بِرِفْعَةِ شَأْنِهِ الأَقْلاَمُ

---

[62] على وزن بحر الكامل الصحيح العروض المقطوع الضرب.

[63] فهيم : بإشباع ضمة الميم لمقتضى الوزن.

[64] الظبى : بضم أوله – جمع ظبة و هو حد السيف أو السنان.

[65] العاديات : الخيل المغيرة ، و جماعة من القوم المستعدين لخوض القتال.

[66] مزية : أي بمزية ، و ضمير المخاطب في (فاهنأ) يعود على محمد بكداش الممدوح

وَ إِلَيْكَ وَدِّي و اخْتِصَاصُ سَابِقُ ‏ ‏ ‏ ‏ يَجْلُوهُ مِنْ دُرِّ الكَلامِ نِظَامُ

إِنِّي وَ إِنْ خُلِّفْتُ عَنْكَ فَلَمْ يَزَلْ ‏ ‏ ‏ ‏ مِنِّي إِلَيْكَ تَحِيَّةٌ وَ سَلامُ

كمل بحمد الله تعالى ، و كان الفراغ من نسخه من مسودة بخط مؤلفــه ، في أواخر جمادي الأخرى عام إحدى و عشرين و مائة و ألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل صلاة سنية.

عن : (التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية

ص : 262 – 264 ، ش.و.ن.ت ، 1981 ، الجزائر)

ثالثا . عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري

المقامة الزوجية :

فــي يــوم الخميس السادس و العشرين ألفت المقامة الحالية : الحمــد لله محــول الأحوال و مرخي البال ، و مقلب الأمور في الدهور ، و الصلاة و السلام على خير الأنام ، المبشر بالفرج بعد الشــدة ، و المنذر بالعناء بعد اللذة ، فقال تعالى : فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا.

وبعد ، لما أن جرى القضاء المحتوم ، و الأمر الملزوم ، بان خــف الــريش ، و أكــل الجويش ، و مضض العيش ، فخلفني الجيش ، و كثر الصرف ، و قصر الطرف ، و جفت الأخوان ، و قلت الأخدان ، و غلب الزمان ، فارتفعت الأقران ، و صعبت

التجارة و سهلت الخسارة ، قرنت بجارة غرة[1] ، عيشتها مرة ، البذرة عندها ذرة ، و ميرة الحجيج عندها بعرة ، لا يشبعها الجليل ، ولا تعبأ بالقليل ، الهموم عندها هم ، و الغموم عندها غم ، حوائجها منجنون ، و آمالها ظنون ، و رغبتها فيما لا يكون ، الدهر كله ساخطة ، و مطالبها شائطة ، تخزيك أو تحرجك أو تحزنك ، أو تجمع كلالك ، لا تطلب إلا العنقا ، و لا ترغب إلا في الروخ ، ولا تتغذى إلا بيض الأنوق ، ولا تجني إلا ثمرة الخلاف ، و لا تركن إلا لعدم الإسعاف ، كأن ما أحبه عقر عيسها ، و ما أهواه نغص عيشها ، غذتها أمها لبان القرود ، فشبت لا تألف المقصود ، نطفة الكلاب في أرحام الثعالب ، غليظة الجناب ، ليس لها في الدهر صاحب ، جمعت تسيطر مؤدب الصبيان ، و شغب الولدان ، و غلظة الملوك ، و نشأة الصعلوك ، كما قيل : أنف في السماء ، وأست في الماء ، بيد أنها تسر الناظرين ، و تصبي السامعين ، يصبو إليها الحليم ،

[1] نرجح أن المؤلف يرمز بها إلى زوجه أم أولاده (زهراء) كما أشار إلى ذلك في النص ، و هي من أجود مقاماته.

و يرنو إليها الكريم ، أشبهت في شهل العيون يوسف الكريم ، ابن الكريم بن الكريم ، و في القد الغصن القويم ، و السمهري المستقيم ، و قد صدق عليها قول الشاعر :

أسيلات أبدان رقاق خصورها   و ثيرات ما التأثث عليه المآزر

هذا و قد جمعت نظافة الأزرار ، إلى البعد ، فيما أعلم ، عن العار ، كأنها درة مصونة ، أو جوهرة مكنونة ، و نسأل الله أن يحفظ الباقي من العمر ، كما ستر السالف مما مضى و مر ، فأشبهت حواشيها ، و لست ممن يحاشيها ، فلذا اخترتها أما لأولادي ، و نافقة لمطارفي و تلادي ، علما مني أن الدنيا دار كدر ، و قليل فيها ما يسر ، نظرا لقول الصادق المصدوق : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار و المهاجرة. و لقوله تعالى : و اصبر و ما صبرك إلا بالله و لا تحزن عليهم و لا تكن في ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون ، و لقوله تعالى : و من يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب ، و من يتوكل على الله فهو حسبه ، حسبي الله و نعم الوكيل ، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي

العظـــيم ، سبحان ربك العزة عما يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين ، و صلى الله على سيدنا و مولانا محمد و على آله وصحبه و سلم.

و قلت في ذلك :

كـأنـي من عـلـو أصبت بدعوة[2] لأني ظلمتها فحق بي الذنب
ظـلـمـتـها حـبا لا قـلاء و بـغـضة على أنـنـي أرجـو يـكـفـر الـرب
أحــبـهـا حـــبـا لا أكــاد أعــبـر على ما نـشأ أو ما أشـاد في الحب
كـأنـها لـحـمي و الجوارح في الورى و أنـها عـظـمـى و الأسـير لها القلب
لذا ألـفـيت إنـسان عيني و كـحلها و صار زلال الـريق من ذكرها عذب
و ما عـلـمـت أني أسـيـر جماها فأحـفـظـها ما قـد بـداه لـها الحِب[3]
و أشـخـصها حتى دعت استجابة و ما أيقنت عرسي يعاجلني الكرب
لأنـــها من حـــبـي جـمـيل بـثـينة و مـجـنـونـها أنا و طـلبتنا القرب
فلما اقـتـرنا بـالـسـعـود في غـفـلة من الدهر و الـلــذات يتبعها التعب
تـغـدا غـراب الـبـين بالعصر علوتي و خلفني أشقى ليقضي لها النحب

[2] في هـذا الشـعـر ، كثير من الأخطاء العروضية تركناها على حالها ، و يقصد (بالدعوة) دعوة الشر
[3] توجد حركة الكسرة تحت الحاء في الأصل

فجاورت بعدها شجاعا و عقربا   فسم فؤادي بعده انبثر الجنب
فأيقنت أني مصاب دعائها   و أجدر من يجزي كما قالت العرب[4]

عن ، (رحلة ابن حمادوش الجزائري ، المسماة لسان المقال في النبا عن النسب و الحسب و الحال ، ص ، 164 – 166 إصدارات المكتبة الوطنية 1983 الجزائر)

[4] في الأبيات الثلاثة الأخيرة رموز لم نهتد إلى حلها . و الظاهر أن المؤلف يصف حاله بعد وفاة زوجه الأولى

رابعا : محمد بن عبد الرحمن الديسي

1 - تفضيل البادية بالأدلة الواضحة البادية :[1]

أحمد من فضل العرب على سائر الأمم و ميزهم بأكرم السجايا ، و أرفع المزايا ، و أشرف الهمم ، و خصهم بأن بعث منهم من فخرت به الغبراء على الخضراء ، سيدنا و مولانا محمد الذي أعطى السيادة المطلقة في الدنيا و الشفاعة الكبرى في الآخرة صلى الله عليه و على آله و أصحابه و أتباعه صلاة دائمة تترى.

هذا و من العجائب التي لم يحكها عيسى بن هشام[2] و الغرائب التي ما عثر عليها في تطوافه الحارث بن همام[3] و ذلك أن عقائل[4] من بنات أقيال[5] القبائل اجتمعن في فصل الربيع و قد

---

(1) هذا هو العنوان الكامل للرسالة ، من دون أية إضافة أو حذف

(2) و (3) يقصد بطلي مقامات كل من الهمذاني . و الحريري . ومن هنا أعتبر رسالته هذه مقامة

(4) جمع عقيلة . و هي المرأة الكريمة ذات الرفعة و المكانة المحترمة

(5) رؤساء القبائل . ورد في المنجد أن "القيل ج أقوال و أقيال و قيول . الرئيس . الملك من ملوك حمير . سمي بذلك لأنه إذا قال قولا نفذ قوله"

نبـح الأرض غيـث مـريع[6] ، فخرجن غب سما[7] ، ليمرحن بالصـحراء المختصة يطيـب الهواء و الوقت المستطاب أوان تمخـض الأوطـاب[8] فقعدن في ظل البان ، بين عفر[9] الكثبان و الطير تغرد و لسان الحال ينشد :

و الريح تعبث بالغصون و قد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

و قـد راقـت لهـن العيشة فطربن و لا طرب العذارى بدارة جلجل ، يوم عقر المطية[10] ، فتجاذبن أطراف الحديث ، و خضن في حكاية القديم منه و الحديث ، فقالت واحدة منهن ألم تسمعن يا أخـوات و يـا بـنات السراة ما ينقل لنا عن أديب قروي يقول بتفضيل ساكنات المدر ، على ساكنات الوبر ، فقلن كلهن من أين لـه هذا التفضيل الذي ليس له عليه دليل ، ألم يعلم هذا المتساهل

---

(6) خصيب ، و كثير الخير

(7) بعد المطر

(8) ج وطب ، وهو في الأصل "الثدي العظيم" و يقصد الشاعر : الشكوة التي يمخض فيها اللبن كما تدعى في الجزائر

(9) البياض المائل للحمرة

(10) في المخطوطة "عقد" و هو خطأ إملائي من دون شك ، إشارة لحادثة (امرئ القيس) مع (عنيزة) و صويحباتها.

و لـــو شئنا لقلنا المتجاهل مالنا من الآباء الأمجاد و كرم الأصول و الأجـــداد ، فهـــم أبـــاة الضـــيم و الظلم ، و الآنفون من العار و الهضـــم ، يكرمون النزيل ، و يأوون الدخيل ، و يراعون حق الجـــار و إن جار ، و يكرمون الضيوف و يلاقون الحتوف[11] ، وهـــم معروفون ببذل القِرى ، و يتحاشون عن بخل أهل القُرى ، مـــا منهم إلا من ينحر الناقة الكوماء[12] و يترع الجفنة القوراء ، مكللـــة بالسديف[13] في السنة الشهباء[14] يدعو الجفلى و يأنف أن يدعو النقرى ، فكأن طرفة بن العبد مقوله :

نحن في المشتات ندعو الجفلى   لا ترى الآدب فينا ينتقر

و فيما لهم من عزة النفس ، يقول أبو العلاء المعري :

الموقدون بنجد نار بادية   لا يحضرن و فقد العز في الحضر

---

[11] يقصد أنهم الشجعان الذين لا يهابون الموت

[12] الضخمة السنام ، ذات الشحم و اللحم

[13] شحم سنام الناقة أو الجمل

[14] السنة الجدبة التي قلت فيها الأمطار ، وقد خلت الأرض من خضرة العشب

أو مـــا درى أننا البريئات من الصحاح[15] ، النقيات من قدر المستراح[16] ، ما جسنا طبيب و لا لمستنا يد مريب ، و لا ألجأتنا الضـــرورة إلى يراءة القارورة[17] ، و لا عرفنا المارستان[18] ، و لا احتجنا المعالجة بالإسهال ، و الإكحال[19] ، و الاحتقان[20] ، لـــنا صحة الوحوش الآبدة[21] و نشاط الظباء النافرة الشاردة ، قد ســلمنا من مزمنات العلل و لم يمرض غالبنا إلا مرض الأجل ، و عوفيـــنا من سيئ الأسقام و الجنون و البرص و الجذام ، و لم ندخـــل الحمامـــات حيـــث تقع الخيانات ، و لا نكثر اللجاج حتى نـــترافع إلـــى القضاة مع الأزواج ، فنوضع تحت أمينة أو أمين و الحريـــري ، يقـــول[22] فـــي زمان إذ الناس ناس ، و الزمان

(15) العرق ذو الرائحة الكريهة

(16) تعبير غامض المعنى . قد يقصد موقع الخلاء

(17) لعله يقصد الأدوية الكيمياوية المحضرة في القوارير

(18) كلمة فارسية . وهي تعني المستشفى . بعد أن عربت

(19) استعمال الكحل

(20) أرجح أن يكون المقصود هو استعمال الحقن الطبية

(21) في الأصل "الأدبة" و هو بعيد عن الصواب . و رجحت الآبدة لأنها أقرب إلى السياق وإلى اهتمام الكاتب

(22) تعبير ركيك غامض المعنى

زمـــان لم يبق صاف و لا أمين و لا ثمين ، و معلوم أن ما انتفى عنا من الوصم التصق بغيرنا على رغم الخصم ، و إن كان فيما يبلغـــنا عن هذا القائل أنه قد تهذب و تأدب ، فهو في هذه المسألة كابـــر و تعصب ، فبموجب ما ذكر يجب أن يجازى و بالشر[23] يوازى ، فهلم نتعاهد و نتوافق و نتعاضد ، و نقسم أولا بما لآبائنا مـــن المفاخـــر و حميد المآثر ، و ثانيا : بما أودع فينا المصور الـــبديع مـــن المحاسن و الجمال البديع ، فمنهن من أقسمت بحياة أبـــيها المغـــوار و أخيها المنحار[24] ، و أخرى بجدها المضياف و واحدة بعمها المتلاف ، و منهن من تقسم بحميها آخذ المرباع ، و أخرى بخالها موقد النار على البقاع ، و هلم جرا ، فلما سمعت عظـــم هذه اليمين و علمت أن الحالف لا يمين[25] ، وهالني هذا الوعيد ، و التغليظ الشديد ، و ما دار بينهن من الكلام الذي كأنه فـــي حســـنه لؤلـــؤ فـــي نظام ، أدركني على هذا الأديب الشفقة

---

(23) بالشر ، مكررة في المخطوطة

(24) الذي ينحر إبلا كثيرة إكراما للضيوف

(25) مان يمين ، كذب ، فالمقصود : لا يكذب

الــرحمة ، لأن للعلم حرمة و للأدب لحمة ، لخاطبت رئيستهن و المتكلمة عليهن ، و هي ذات خفر و احتشام ، كأنها في مجلسها بينهن الصهباء بنت بسطام[26] أو هند بنت النعمان أو حليمة بنت الحــارث بن الأعرج ملك غسان ، أو مارية[27] ذات القرطين أو بنــت ذي البردين ، أو حفيدة ذي الجدين ، أو عزة في عزها أم الخنساء في حليها و بزها[28] ، أو عبلة عنتر أو بنت تبع و حمير أو بوران ، ليلة زفت للمأمون ، أو زوج المعتضد : قطر الندى ، أو بنت طولون[29] ، فقلت : ياست العرب و أمينة النفس و منتهى الأرب ، ياســرى و ساهلي ، و هبي إن هذا الأديب بأهلي أليس حقــا ما يقال : إن مأثور الأدب يغني عن شرف النسب ؟ قالت : نعــم ، و إن كــان هــذا قــد تنقصنا و آذى و لولا شفاعتك أيها المحامي الموامى[30] فلمراعاة خاطرك يا حامي الذمار ، و السابق

(26) من فرسان العرب
(27) بنت الملك العربي : أرقم
(28) ملابسها
(29) من أشهر ملوك مصر
(30) ساكن البادية و الريف

فـــي هذا المضمار ، نعرض عليه توبة تغسل عنه الحوبة[31] فإن امتثل ما اقترحناه ، و قبل النصح الذي نصحناه ، تزف إليه أجمل عقيلة من أشرف قبيلة ، و إلا فقد أعذر من أنذر.

و هنا تم المقصود و ربنا – لا غير – هو المعبود ، و الصلاة و الســـلام على سيدنا محمد خلاصة الوجود ، و على آله بحور الندى ، و نجوم السعود.

عن : (تفضيل البادية بالأدلة الواضحة البادية ، مخطوط ، ص : 1– 3) - (الديسي : حياته و آثاره و أدبه ، ص : 304 – 307 ش.و.ن.ت ، 1980 ، الجزائر)

(31) الإثم

2- نماذج من المناظرة بين العلم و الجهل:

1) من أقوال العلم و آرائه يخاطب الجهل : " يا جهل ما أنت لخطابي بأهل ، و لا جدالي عليك بسهل ، يا موت الأحياء و يا قليل الحيا ، و يا سبب تفليس ابليس ، و يا حلية كل دنئ و خسيس ، و كيف تكون لي انت المجاري و العلة صفة الباري و ميراث الأنبيا ، و ورد في فضله مالا يحصى من الآيات و الأنبا ، و يكفيك لو كنت من قوم يفهمون ، قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون ، و جاء في السنة : العالم و المتعلم و العلم في الجنة ، و أنت يا جهل بسيطك عدم ، و مركبك موجود لا يثبت له قدم ، و من معلوماتي / التفسير و الحديث ، المعظمان في القديم و الحديث ، و علم التوحيد الذي هو لباب الجنة اقليد ، والي ترجع الأربعة أركان التي بها شرف الإنسان علوم الأديان ، و علوم الأبدان ، و علوم الأذهان ، و علوم اللسان ، و يكفي الجهل قبح وسمه و لكل مسمى حظ من اسمه ، يخبط خبط عشوا ، و يركب متن عميا ، و يتصور الأشياء على

خـــلاف ما هي عليه ، و كل شرفي الدنيا منسوب إليه ، و بالعلم تـــدرك المراتـــب الفاخرة ، و تنال سعادة الدنيا و الآخرة ، يزيد بالإنفـــاق ، و وقع على فضله الاتفاق ، معظم في كل ملة ، وبه تقوم قواعد كل نحله ، بنوه السادة ، و لأهل الدنيا و الآخرة قاده ، مذاكـــرتهم زيـــادة و مجالستهم عبادة ، و نعم الأنيس في الوحدة و المعيـــن على الشدة ، و الزاد و العدة ، يستغفر لأهله كل شيء حـــتى حيتان الماء فمن أين لك فخاري ، و إن تساميني في طيب أصلي و كرم نجاري ، فمن أبنائي مفسرون و حفاظ ، و صوفية و وعاظ ، و متكلمون و فقهاء و أصوليون و أدباء ، و مؤرخون و أطـــباء ، و مناطقة و حكماء ، و فرضيون و حساب ، و بلغاء و كـــتاب و مـــنجمون و جغرافيون ، و أهل هيئة و مهندسون ، و مساحة و سياسة ، و علم حروب و فراسة"

لكنه عندما يكتشف أن وضعه يختلف عن أقواله ، فإنه يقول :

"فلتـــبك علـــى سلفي الصالح المنابر ، و الأقلام و المحابر ، أما الآن ، ما كان ، و ذهبت الجماعة و اقتربت الساعة ، فلا يسعني إلا الرضـــى ، و الصـــبر على مر القضا ، و التغلب على جمر

الغضـــا[1] ، فالشيء ينتهي إذا بلغ غاية حده ، فعسى الله أن يأتي بالفتح أمر من عنده.

2) من ، أقوال الجهل يخاطب العلم ، " أما ترهب بأسى و شدة شـــوكتي ، و بـــيدي المناصــــب و أنـــنا الـــرافع و الناصــــب ، و المتصــــرف فـــي الحكـــام ، و إليّ مرجع الأحكام ، و النقض و الإبرام و القهر و الألزام"... "يا قليل الجدوى ، يا داعية الكبر و الدعوى ، أتفخر ببنيك الشعث الغبر ، الذين ليس لهم عند أهل الدنـــيا اعتـــبار و لا قدر ، إن خطبوا ردوا ، و أن عد الناس فما عدوا ، و إن غابوا فما فقدوا ، و إن حضروا فكأنهم ما وجدوا ، مالهم شارة و لا إليهم إشارة ، و لا يرجع إليهم في استشارة ، إن نطقوا أسكتوا و إن صدقوا أبهتوا ، عاقلهم حلس البيت ، و حيهم بمـــنزلة الميت لا يطمعون في نيل الرتب و سكنى غالبهم الزوايا و الـــتراب ، قلوبهـــم منكســـرة للغـــربة ، و هم حلفاء كل محنة و كربة ، لا ينفكون عن تألم ، و يتجرعون كاسات ذل التعلم"....

---

[1] خشب صلب ، يبقى جمرة متقدا ، و لا ينطفئ إلا بعد مدة كبيرة

هذا و أبنائي المترفون المنعمون ، و القوم الذين هم في العيون معظمـــون ، يتمتعون بفاخر الأكل و اللباس ، و سواء عندهم ما بأس به ، و ما به بأس ، فكم أجروا في الهوى أفراسا ، و زينوا ولائــم و أعراســا ، و عمــروا القهــاوي ، و الحانات و ملأوا الإصطبلات و الحانات ، و لهم المعازف و العيدان ، و المغنون و القــيان ، و لهم الليل و صهوات الخيل ، و هم الحماة و الكفاة و لهــم المكــيفات و الكافــات ، و بأيديهم المتاجر و الأسواق ، و إليهم الأرزاق عفوا تساق ، وهم القوم كل القوم ، انفقوا بضاعة الأعمــار فــي الشبع و النوم ، ينامون الصبحة ، و يرتكبون كل شــيء لا يخافون قبحه ، أبناء الغفلة و الكسل ، و همهم العسيلة و العســل ، يحبون العاجلة و لا يتفكرون في الآجلة ، لا يعرفون غير هذه الدار ، و يقولون إلى اللذات : البدار ، البدار! إلى أن تأتــيهم النقلة ، على حين غفلة ، و رحمة الله من وراء ذلك لمن مات عن الإيمان ، فإنه جل و علا هو الرحيم الرحمن ...

وهبك صرت العلامة الثاني ، ما بلغت الأماني ، فسلم لي في سلطاني ، فالزمان زماني ، و الناس خدامي ، و الدهرعبدي و غلامي و قد آن أن ترجع من حيث أتيت ، و تموت كما كنت من قبل حييت".

3) الإنصاف : ثم يختم الموقف في (المقامة) دور (الحكم) بين الخصمين (العلم) و (الجهل) الذي أطلق عليه المؤلف اسم (الإنصاف) : "قام حينئذ الجميل الأوصاف حلية الناس و الأشراف المعروف بالإنصاف ، فقال : أيها الخصمان دعا الشقاق و اتركا اللجاج و لا تطيلا الحجاج ، و أنتما المتعاقبان على نوع الإنسان و الوصفان له الملازمان إن فقد هذا وجد ذاك ، فبينكما بهذا المعنى اشتراك و كلاكما من إرادة القدرة و بدائع الفطرة ، و قد اقتضت الإرادة الأزلية أن يكون العالَم على هذا النظام جهلاء و أعلام ، فلو كان الناس علماء كلهم فمن ذا يقوم بالمهن أو جهلاء كلهم فمن ذا الذي يحفظ الشرائع و السنن ، و ليست بينكما مصادمة و لا كبير معاندة ، بل بينكما تقابل العدم و الملكة فاحذر

الهلكة و سوء الملكة ، فالوفاق يمكن إن شاء الله بينكما بركة و أنا أقضي بينكما بقضاء فصل و كلام جزل ، فخيركما العالم العامل ثـــم يلـــيه المسترشـــد الجـــاهل و لا خير في غير ذين من كلا الصنفين ، فانقضى الكلام و افترقوا بسلام و ختمت المقامة بحمد أهـــل الجنة في دار المقامة و الصلاة و السلام على الفاتح الخاتم و آله و صحبه و هي أحسن الخواتم ..."

عن .- (المناظرة بين العلم و الجهل ، ص ، 1 – 13 مطبعة بيكار ، تونس ، من دون تاريخ)

- (الديسي حياته و آثاره و أدبه ، ص ، 308 – 310 ش.و.ن.ت ، الجزائر 1980)

خامسا . محمد البشير الإبراهيمي

المقامة الرثائية

(مناجاة مبتورة ، لدواعي الضرورة)

سلام يتنفس عنه الأقاح بإزهاره و إيراقه ، و يتبسم عنه الصباح بنوره و إشراقه.

و ثناءٌ يتوهج به من عنبر الشجر عبيره ، و يتبلج به من بدر التمام ، على الركب الخابط في الظلام ، منيره.

و صلوات من الله طهورها الروْح و الريحان ، و أركانها النعيم و الرضوان ، و تحيات زكيات تتنزل بها – من الملإ الأعلى – الملائكة و الروح ، و نفحات ذكيات تغدو بها رسل الرحمة و تروح ، و خيرات مباركات يصدّق برهانُ الحق قولها الشارحَ بفعلها المشروح.

و سلام من أصحاب اليمين ، و غيوث من صوادق الوعود ، لا صوادق الرعود ، لا تخلف و لا تمين ، و سحائب من الرحمات تنهل سواكبها ، و كتائب من المبشرات تزجى مواكبها.

و ســوافح من العبرات تنحلّ عزاليها ، و لوافح من الزفرات تسابق أواخرها أواليها.

علــى الجـدث الــذي التأمتْ حافتاه على العلم الجم و الفضل العـد ، و وارى ترابه جواهر الحجا و الذكاء و العزم و الجد ، و طــوَى البحر الزخار في عدة أشبار ، فأوقف ما لا حدّ له عند حـد ، و استأثر بالفضائل الغرْ ، و المساعي الغرّ ، و الخلال الزهــر ، فلــم يكن له في الأجداث ند ، وأصبح من بينها المفرد العلم كما كان صاحبه في الرجال العلمَ الفرد.

و ســلام علــى مشاهدَ كانت بوجوه مشهودة ، و على معاهد كانت ظلال رعايته و تعهده عليها ممدودة ، و على مساجد كانت بعلومــه و مواعظــه معمــورة ، و علــى مدارس كانت بفيضه الزاخر ، و نوره الزاهر ، مغمورة ، و على جمعيات كان شملها بوجوده مجموعاً ، و كان صوته الجهير ، كصوت الحق الشهير مدويّا في جنباتها مسموعاً.

مشــاهد كــان يراوحها للخير و النفع ، و كانت آفاقها بأنواره مسفرة.

و معــاهد كان حادى زُمُرَها إلى العلم ، و هادى نُزّاعها إلى الإحسان و السلم فأصبحت بعده مقفرة.

و مــدارس ، ما مدارس ، مهدها للعلم و الإصلاح مغارس ، و نصــبها في نحور المبطلين حصوناً و متارس ، و شيدها للحق و الفضيلة مرابط و محارس.

و سلام على شيخه الذي غذى وربى ، و أجاب داعيّ العلم فيه ولبى ، و آثر في توجيهه خير الإسلام ، فقلد الإسلام منه صارماً غضباً ، و فجر منه للمسلمين معينا عذباً ، فلئن ضايقته الأيام في حــدود عمــره ، فقــد أبقت له منه الصيت العريض ، و الذكر المستفيض ، و لئن أذاقته مرارة فقده ، فقد متعته بقلوب أمة كاملة مــن بعــده ، و لئن حرمته لذة ساعات معدودة ، فقد أسعدته به سعادةً غير محدودة.

و ســلام علــى إخــوان كانوا زينة ناديه ، و بشاشة واديه ، و كــانوا عمّــار ســامره ، و الطيــب المتضوع من مجامره ، و الجوارح الماضية في تنفيذ أوامره.

و سلام على إخوان كانوا معه بناة الصرح ، و حماة السرح ، و كـــانوا ســيوف الحق التي بها يصول ، و ألسنة الصدق التي يقـــول ؛ أبت لهم عزة الإسلام أن يضرّعوا أو يذلوا ، و أبت لهم هدايـــة القـــرآن أن يزيغوا عن منهاجه أو يضلوا ، و أهلك العالم زلـــل العلماء فتقاسموا بشرف العلم أن لا يزالوا ؛ تشابهت السبل على الناس فاتخذوا سبيل الله سبيلا ، و افترق الناس شيعاً فجعلوا محمداً و حزبه قبيلاً.

و لقد أقول على عادة الشعراء – و ما أنا بشاعر – لصاحبين من تصوير الخيال أو من تكييف الخبال ، تُمثِّلهما الخواطر تمثيل صـــفاء ، و تقيمهما في ذهني تمثال وفاء : بكّرا صاحبي فالنجاح فـــي التكبـــير ، و ما على طالب النّجْح بأسبابه من نكير ، تنجحا لصـــاحبكما طيةً ، لا تبلغ إلا بشد الرحل و تقريب المطية ، فقد خُتمت – كما بدئت – الأطوار ، بدولة الرحال و الأكوار ، فادفعا بالمهـــريّة القـــود ، في نحر الوديقة الصيخود ، و لا تخشيا لذْع الهواجـــر ، و إن كنـــتما فـــي شهري ناجر ، و لا يهولنّكما بعد الشُّـــقة ، و خـــيال المشقّة ، ولا الفلوات يصمّ صداها ، و يقصر

الطــرف عــن مداها ، و لا السراب بترجرج رقراقه ، و يخدع الظامئ المحرور مُراقه.

سـيرا – علـى اسم الله – في نهار ضاح ، و فضاء منساح ، ضـاحك الأَسْـرّة وضـّـاح ، و تخلّلا الأحياء فستجدان لاسم من تنتجعانه ذكراً ذائعاً في الأفواه ، و ثناء شائهاً على الشفاه ، و أثراً أزكـى نماءً و أبقى برداً على الأرض من أثر الغمام المنهل فإذا مسّـكما المـلال ، أو غشى مطيكما الكلال فاحدوا بذكراه ينبعث النشاط ، و ينتشر الاغتباط ، و تفْنيا بها عن حمل الزاد ، و ملء المزاد ، و تأمنا غولْ الغوائل ، من أفناء دراج و نائل[1].

سيرا – روحي فداؤكما من رضيعيْ همة ، و سليليْ منجبة من هذه الأمة – حتى تدفعا في مسى خامس ، له يوم الترحل خامس ، إلى الوادي الذي طرّز جوانبه آذار ، و خلع عليه الصانع البديع ،

[1] أولاد دراج مجموعة قبائل ترجع أصولها إلى هلال بن عامر جد القبائل العربية التي أغارت على شمال إفريقية . فخربوا . و لكنهم عربوا ؛ و مواطن أولاد دراج إلى الآن هي ما بين المسيلة (المحمدية) وطبنه، و أولاد نائل مثلهم و لكنهم أكثر منهم عددا . و مواطنهم تتصل بمواطن إخوانهم أولاد دراج و لكنها تتسع في مقاطعة الجزائر . و لا تزال المخايل و السمات العربية ظاهرة في هذه القبائل.

مـــن حلَيْ الترصيع ، و حلل التفويف و التوشيع ، ما تاه به على الأودية فخلع العذار.

و أتــيا العُـــدوة الدنـــيا فـــثمّ المنتجع و المراد ، و ثمّ المطلب و المـــراد ، و ثمّ محلة الصدق التي لا يصدر عنها الوُرّاد ، و ثمّ مـــناخ المطايـــا على خُلاَّل الحق ، و جيرة الصدق ، و عُشراء الخلود ، الذين محا الموت ما بينهم من حدود ؛ اهتفا فيها بسكان المقابر غنىّ :

ما للمقابر لا تُجيب الداعي   أو ما استقلّت بالسميع الواعي

و خصا القبر الذي تضمن الواعي السميع ، و الواحد الذي بذّ الجميع ، فقولا له عني :

يـــا قـــبر ، عـــزّ على دفينك الصبر ، و تعاصى كسرُ القلوب الحزيـــنة علـــى من فيك أن يُقابل بالجبر ، و رجع الجدال ، إلى الاعتدال ، بين القائلين بالاختيار و القائلين بالجبر.

يا قبر ، ما أقدر الله أن يطوي علماً ملأ الدنيا في شبر!

يا قبر ، ما عهدنا قبلك رمساً ، وارَى شمساً ، و لا مساحة ، تكال بأصابع الراحة ، ثم تلتهم فلكاً دائراً ، و تحبس كوكباً سائراً.

يـــا قبر ، قد فصل بيننا و بينك خط التواء ، لا خط استواء ، فالقريب منك و البعيد على السواء.

يـــا قبر ، أتدري من حويت ؟ و على أي الجواهر احتويت ؟ إنك احتويت على أمة ، في رُمة ، و على عالم في واحد.

يا قبر ، أتدري من خطك ، و قارب شطك ، أيّ بحر ستضُم حافـــتاك ؟ و أيّ معـــدن ســـتزن كفتاك ؟ و أيّ ضرغامة غاب ســـتحتبل كفـــتاك ؟ و أيّ شيخ كشيخك و أيّ فتى كفتاك ؟ فويح الحافرين ماذا أودعوا فيك حين أودعوا ؟ و ويحَ المشيعين من ذا شيعوا إليك يوم شيعوا ؟ و من ذا ودّعوا منك إذ ودّعوا ؟ إنهم لا يدرون أنهم أودعوا بنّاء أجيال في حفرة ، و ودّعوا عامر أعمال بقفرة ، و شيعوا خدن أسفار ، و طليعة استنفار ، إلى آخر سفرة.

يا قبر ، لا نستسقي لك كل وطفاء سكوب ، تهمى على تربتك الزكـــية و تصـــوب ، و لا نســـتدعي لـــترويض ثراك المثقلات الدوالـــح ، و الغوادي و الروائح ، و لا نحذو في الدعاء لك حذو الشـــريف الرضى ، فنستعير للنبت جنيناً ترضعه المراضع ، من الســـحب الهوامع ، تلك أودية هامت فيها أخيلة الشعراء ، فنبذتهم

بالعراء ، و زاغوا بها عن أدب الإسلام و منهاجه ، و راغوا عن طينــته و مــزاجه ، بل تلك بقية من بقايا الجهل ، ما أنت و لا صاحبك لها بأهل.

قــولا لصــاحب القبر عني : يا ساكنَ الضريح ، نجوى نضو طلــيح ، صادرة عن جفن قريح ، و خافق بين الضلوع جريح ؛ يتأوبه في كل لحظة خيالك و ذكراك ، فيحملان إليه على أجنحة الخــيال مــن مسراك ، اللهب و الريح ؛ و تؤدي عنهما شؤونه المنسربة ، و شجونه الملتهبة ، و عليهما شهادة التجريح.

إذ مــن تركت وراك ، لم يحمد الكرى فهل حمدت كراك ؟ و هيهات ، ما عان كمستريح!

يــا ســاكن الضــريح ، أألكنــي ؟ أم أنــت كعهدي بك تؤثر التصــريح ؟ إن بُعــدك ، أتعب من بَعدك ، لقد كانوا يلوذون من حــياتك الحــية بكنف حماية ؛ و يستذرون من كفاءتك للمهمات بحصــن كفاية ، و يستدفعون العظائم منك بعظيم ، و أيم الله لقد تلفتــت بعدك الأعناق و اشرأبت ، و ماجت الجموع و اتلأبت ،

تبحث عن إمام لصفوف الأمة ، يملأ و يسد الثلمة ، فما عادت إلا بالخيبة ، و صفر العيبة.

يا ساكن الضريح ؛ مت فمات اللسان القوّال ، و العزم الصوّال ، و الفكر الجوّال ، و مات الشخص الذي كان يصطرع حوله النقد ، و يتطاير عليه شرر الحقد ، و لكن لم يمت الاسم الذي كانت تقعقع به البرد ، و تتحلى به القوافي الشرُد ، و لا الذكر الذي كانت تطنطن به الأنباء ، و تتجاوب به الأصداء ، و لا الجلال الذي كانت تعنو له الرقاب ، و تنخفض لمجلاه العقاب ، و لا الدوي الذي كان يملأ سمع الزمان ، و لا يبيت منه إلاّ الحق في أمان.

مات الرسم ، و بقي الاسم ، و اتفق الودود و الكنود على الفضل و العلم.

و عزاء فيك لأمة أردت رشادها ، و أصلحت فسادها ، و نفقت كسادها ، و قوّمت منآدها ، و ملكت بالاستحقاق قيادَها ، و أحسنتَ تهيئتها للخير و إعدادَها ، و حملتَها على المنهج الواضح ، و العلم اللائح ، حتى أبلغتَها سدادَها ، و بنيت عقائدها

فــي الديــن و الحياة على صخرة الحق ، و مثلك من بنى العقائد وشــادها ، أعليت اسمها بالعلم و التعليم ، و صيرت ذكرها محل تكــريم و تعظــيم ، و أشربتها معاني الخير و الرحمة و المحبة و الصــدق و الإحسان و الفضيلة ، فكنت لهم نعم الراحم و كنت بها البر الرحيم.

و لقــد حييتَ فما كانت لفضلك جاحدة ، و مت فما خيبتْ من آمالك إلا واحدة [2].

و هنيــئاً لــك ذخــرك عــند الله مما قدمت يداك من باقيات صالحات ، و عزاء لك فيمن كنت تستكفيهم ، و تضعُ ثقتك الغاليةَ فيهم ، من إخوانك العلماء العاملين ، الصالحين المصلحين ، فهم – كعهدك بهم – رُعاةٌ لعهد الله في دينه ، و في كتابه ، و في سنة نبــيه ، دعــاة إلى الحق بين عباده يلقون في سبيله القذى كحلا ، و الأذى من العسل أحلى.

(2) هـي القـيام بـثورة جارفـة تكتسـح الاسـتعمار الفرنسـي . و تنتز بهـا منـه حريـتها و اسـتقلالها . فهـذه هـي الأمـنية الـتي كـنا نتـناجى بهـا و نعمـل لتصـحيح أصـولها . وقـد حققـت الأمـة الجزائرية الماجدة هذه المنية بعد نحو عشرة سنة على أكمل وجه

و ســـلام علــيك فـــي الأولين ، و سلام عليك في الآخرين ، و ســـلام علــيك في العلماء العاملين ، و سلام عليك في الحكماء الربانيين ، و سلام عليك إلى يوم الدين.

أفلو[3] : 22 ربيع الأول 1960 / 9 أفريل 1941

عن ، (عيون البصائر ، ص ، 664 – 659 ، ط.2 ،

ش.و.ن.ت. ، الجزائر 1972)

---

[3] أفلـو : قرية نائية في جبل العمور من الجنوب الوهراني و هذه القرية هي التي اختارتها السلطة العسكرية منفى لكاتب هذه الكلمات في أول الحرب العالمية الثانية فقضى فيها ثلاث سنوات.


المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

1. الأمير، عبد القادر الجزائري، كتاب المواقف في التصوّف والوعظ والإرشاد، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق ، 1966م.

2. الإبراهيمي، محمد البشير، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، من دون تاريخ.

3. ابن إبريهمات، عمر، مقامة أدبية، جريدة (المغرب) الجزائر، العددان : 11 و12، ماي 1903م.

4. ابن حمادوش، عبد الرزاق، تحقيق وتعليق الدكتور أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م.

5. ابن محرز الوهراني، ركن الدين محمد، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش، مراجعة وتقديم الدكتور عبد العزيز الأهواني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، 1968م.

6. ابن ميمون، محمد الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم، سلسلة ذخائر المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
7. البوني، أحمد بن قاسم بن حمد ساسي، أعلام الأحبار بغرائب الوقائع والأخبار، تحقيق وتقديم الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد : 58، الجزائر، 1981م.
8. خبشاش، محمد الصالح ،زفرات القلوب، جريدة النجاح ، الجزائر، الأعداد : 406- 422، شعبان رمضان 1345هـ (فيفري – مارس 1927م).
9. الديسي، محمد بن عبد الرحمن، المناظرة بين العلم والجهل، مطبعة بيكار وشركائه، تونس، من دون تاريخ.
10. الديسي، محمد بن عبد الرحمن، بذل الكرامة لقراء المقامة، مخطوط.

◄ ثانيا : المراجع

1. ابن قينة، عمر، الديسي : حياته وآثاره وأدبه، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.

2. الحريري، أبو محمد القاسم، مقامات الحريري، المكتبة التجارية الكبرى، مع رسالتيه : (السينية) و(الشينية) ورسالة (ابن الخشاب) في الاعتراض على الحريري، مصر، من دون تاريخ.

3. الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط : 5، بيروت 1980م.

4. ناصر، د. محمد صالح، الصحف العربية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م.

5. ضيف، د. شوقي، المقامة، دار المعارف، ط : 4 ، مصر ، 1976م.

6. عنان، محمد عبد الله، عصر المرابطين والموحّدين في الأندلس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط : 1، القاهرة 1964م.

7. سعد الله، د. أبو القاسم، مقامة البوني، مجلة الثقافة، الجزائر، عدد : 58، الجزائر 1980م.

8. الهمذاني، بديع الزمان، شرح الشيخ محمد عبده، المكتبة الكاثوليكية، بيروت، 1965م.

◄ ثالثا : الدوريات

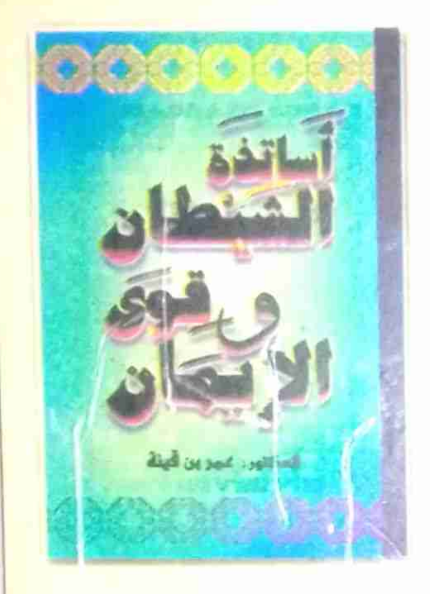
1. جـريدة المغـرب، الجزائـر، السـنة الأولى، العـددان : 11 و 12، ماي 1903م.

2. جـريدة الـنجاح، الجزائـر، الأعـداد : 406 – 422، فـيفري – مارس 1927م.

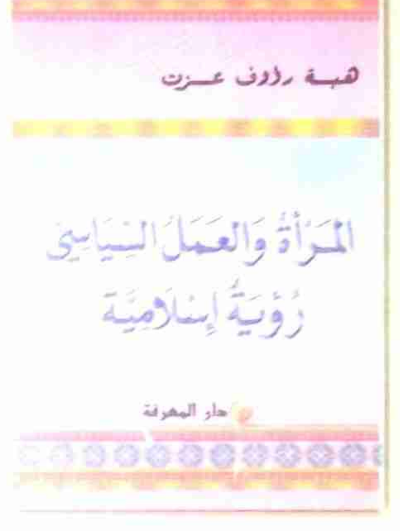
3. مجلة الثقافة ، الجزائر، العدد : 58، سنة 1400هـ – 1980م.

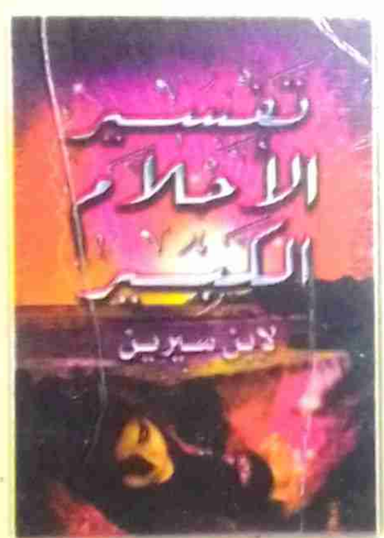
فهرس الموضوعات

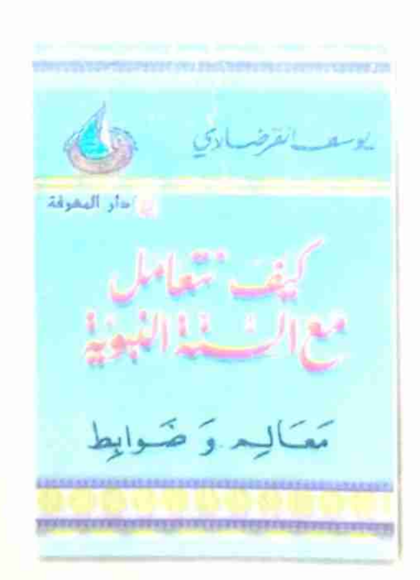


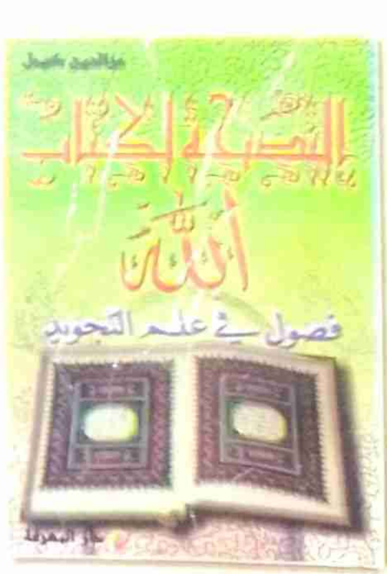












دار المعرفة

اطلبوا هذه الكتب من

دار المعرفة

10 شارع عبد الرحمان ميرة - باب الوادي - الجزائر

هاتف/فاكس: 65 76 96 (021)

ردمك 9961-48-014-7

تصميم الغلاف: جيلالي زالوني

imagini COMMUNICATION

